

الامانى

السبان

154.5:A28nA:c.1

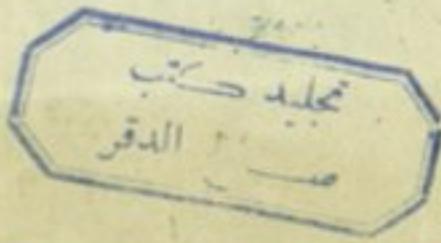
الاهواني، احمد فؤاد

النسیان

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

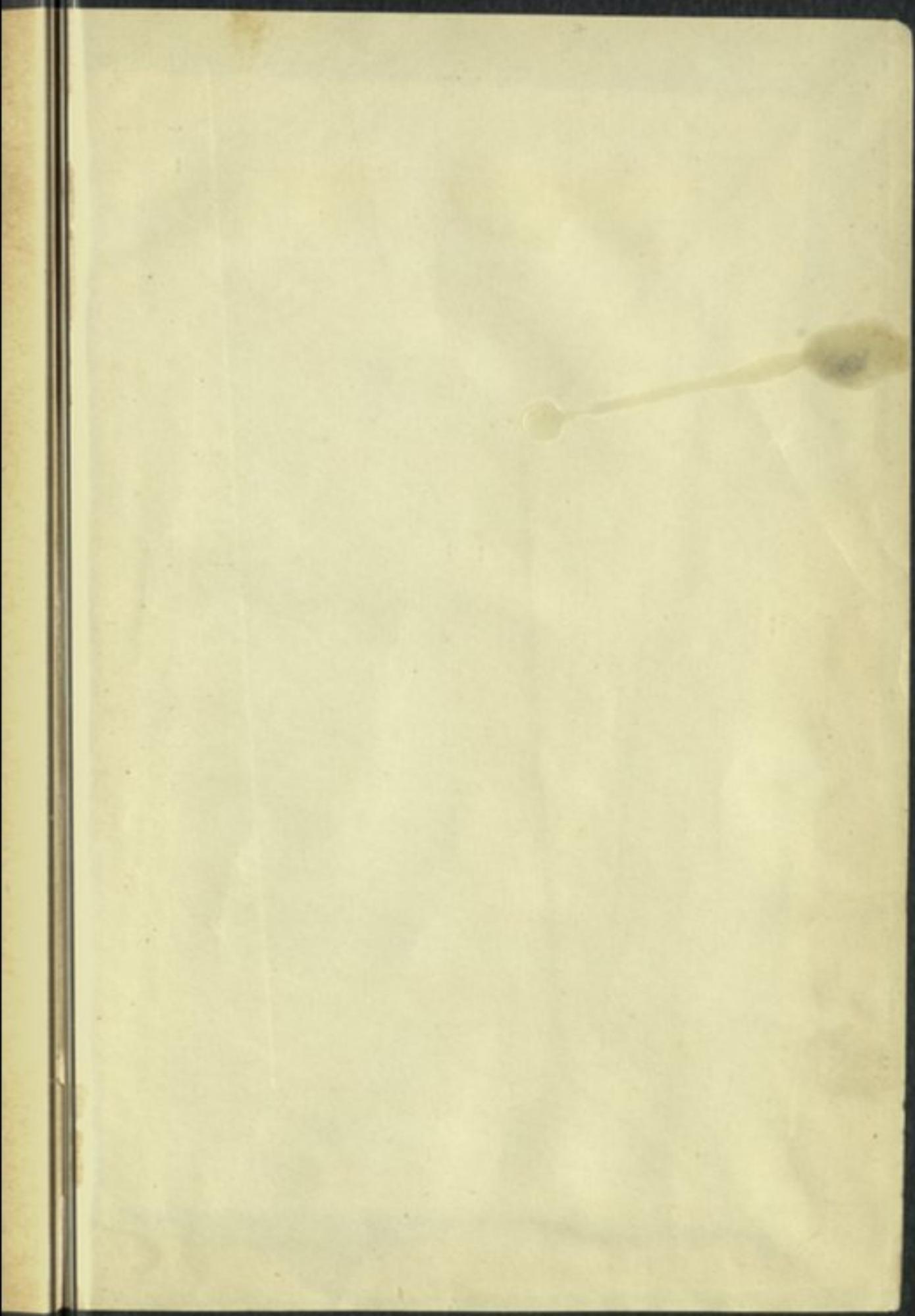


01001680

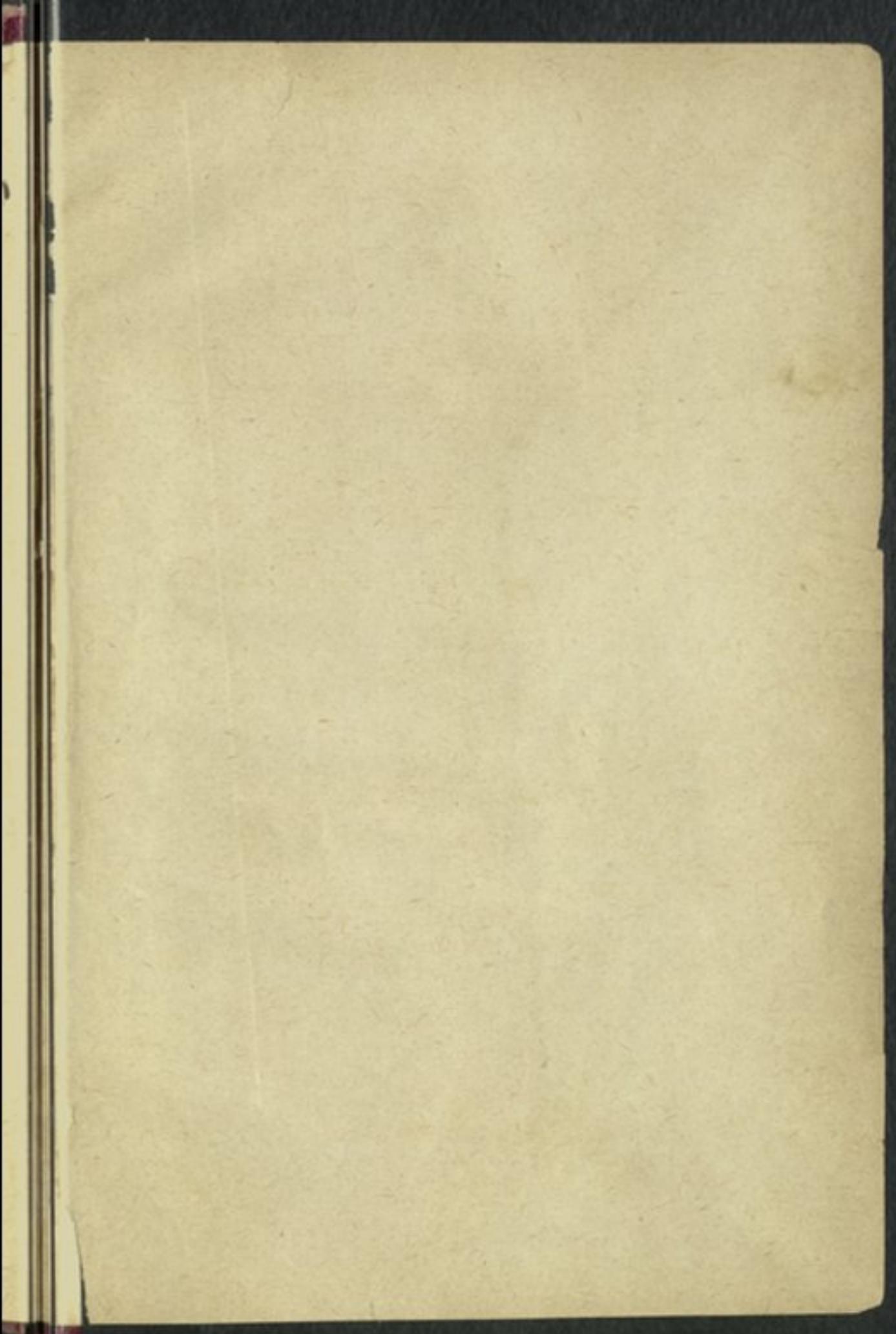


**DATE DUE**





الثيان



154.5  
A28n A  
C.1

الدكتور احمد فؤاد الهرواني

# النبيان

اقرأ

١٣٣

دار المعرف للطباعة والنشر مصر

اقرأ ١٣٣ - أول يناير ٩٥٤



جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظٌ  
لِدَارِ الْعِلْمِ بَصْرَةِ

## فوائد الذكر وغوائل النسيان

أَدَمُ اللَّهُ عَلَيْكَ نِعْمَةُ الثِّقَةِ بِالنَّفْسِ وَعُمْرُ قَلْبِكَ بِالإِيمَانِ ،  
وَأَيْدِكَ بِفَضْيَلَةِ الذِّكْرِ وَأَبْعَدَ عَنْكَ آفَةَ النَّسِيَانِ .

وَقَدْ رَجُوتُ مِنْكَ — أَيْهَا الْأَخُ الصَّدِيقُ — أَنْ تَذَكَّرَ  
مَا طَلَبْتُ مِنْكَ ، فَزَعَمْتُ أَنَّكَ لَا تَنْسِي !

اللَّهُمَّ وَجْلُ مَنْ لَا يَسْهُو . سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى فَهُوَ الْقَاتِلُ فِي  
حُكْمِ التَّنْزِيلِ « لَا يَكْلُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا هَا مَا كَسَبَتْ  
عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبُّنَا لَا تَؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا » .

كَيْفَ تَذَهَّبُ فِي ثُقَّتِكَ بِنَفْسِكَ وَاعْتَرَازُكَ بِهَا وَاطْمَئْنَافُكَ إِلَيْهَا  
عَهَادِكَ عَلَيْهَا إِلَى دُعَوَى الْعَصْمَةِ مِنَ النَّسِيَانِ .

حَقًا إِنَّ الثِّقَةَ بِالنَّفْسِ فَضْيَلَةٌ فِي كُلِّ شَخْصٍ يُرِيدُ أَنْ  
يُعِيشَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ سِيدًا لَا مُسُودًا ، وَحَاكِمًا لَا مُحْكُومًا ،  
وَعَزِيزًا لَا ذَلِيلًا . وَهِيَ أَلْزَمُ الْفَضَائِلِ لِمَصْرُ فِي عَهْدِهَا الْحَدِيدِ .  
وَهِيَ أَوْلُ شَرْطٍ مِنْ شَرْطَاتِ التَّذَكُّرِ ، لِأَنَّ الْذَّاكِرَةَ لَيْسَ شَيْئًا  
آخَرَ إِلَّا « النَّفْسُ » ، فَالثِّقَةُ بِهَا حَيَاةُ الْذَّاكِرَةِ ، أَوْ حَيَاةِهَا .

وَلَا تَحْسِنَ أَنْ تُلْعِبَ بِالْأَلْفَاظِ حِينَ أَجْعَلَ النَّفْسَ مِرَادِفَةً

للذاكرة ؛ فأنت تعرف ولا ريب مذهب برجسون ، وتعرف كتابه المشهور « المادة والذاكرة » الذي يقابل فيه بين الجسم والنفس ، بين المخ والشعور ، إلى أن يقول في ختام كتابه : « بالذاكرة نصبح حقيقة في ميدان النفس ». .

وسأز يدك بهذه النظرية بياناً خلال فصول هذا الكتاب . وإنك لعلى حق حين عولت على الذاكرة وأودعها ثقتك ، لأنَّ فوائد الذاكرة في الحياة النفسية والاجتماعية من الخطر بحيث تبطل كل حياة تخلو من الذاكرة ، وترتقي الأحياء مع سمعها وشموها وحسن استخدامها . .

ولعلك تعجب من نسبة الذاكرة لسائر الكائنات الحية كالنبات والحيوان . ولكن عجبك يزول بعد النظر إلى أصناف الذاكرة ، أو إلى قسميه المشهورين : الآلية والشعورية . .

يقسم برتراند رسل في كتابه « تحليل العقل » الذاكرة

قسمين : ذاكرة العادة وذاكرة المعرفة Habit-memory, Knowledge-memory . وإلى مثل ذلك يذهب برجسون أيضاً مع قليل من الاختلاف . وهناك أقسام أخرى لا محل لذكرها الآن . والعادة ميل إلى أداء عمل من الأعمال نتيجة التكرار ، حتى يصبح هذا العمل « آلياً » كالمشي والكتابة وتناول الطعام وما إلى ذلك . .

ويتجه معظم علماء النفس المحدثين إلى إخراج هذه الأعمال الآلية من ميدان الذاكرة التي يقتصر فيها على الأمور التي ندركها مع شعور ومعرفة.

ومع ذلك فنحن نلاحظ في حياتنا اليومية اختلال بعض الأعمال العادلة التي نكررها آلياً، ولا يمكن أن نعمل هذا الاختلال إلا بالنسبيان. مثال ذلك الذي يصلى العصر وهو يعلم أنه أربع ركعات، يكررها اعتياداً، وقد ينسى فيزيد ركعة أو ينقص ركعة من غير أن يدرى، إذا كان مشغول البال. ورأيت زميلاً في أيام التلمذة منذ أكثر من ثلاثين عاماً وقد ليس وهو ذاهب إلى المدرسة «لبدة» فوق رأسه، بدلاً من الطربوش، فلما نبهته إلى ذلك عاد إلى منزله مسرعاً وغير لباس رأسه. ذلك أنه كان معتاداً أن يصلى الصبح مغطياً رأسه بهذه اللبدة، فنسىها على رأسه مع العجلة.

ويروى عن أديسون -فيما أذكر- أنه أخذ يحل مسألة رياضية عويصة اشتغل بها عقله وهو في الشارع، فأنخرج من جيبه قطعة من الطباشير، ورأى أمامه عربة أجرة ظهرها أسود كالسبورة، فشرع يكتب عليها، حتى إذا سارت العربة رأى الناس رجلاً يحرى وراءها وهو ممسك بالطباشير ولا يزال يكتب.

من أجل ذلك عدّ بعض علماء النفس الأعمال العادبة من جملة الذاكرة ، وفسروا اختلالها بالنسیان ولو أنه صادر عن اللاشعور .

ولنرجع إلى بيان فوائد الذاكرة بوجه عام ، دون اقتصار على ذاكرة المعرفة والشعور ، فقد تفسر لنا هذه النظرة الشاملة حقيقة الذكر وطبيعة النسيان .

فالذاكرة تظهر كما قلنا مع أدنى الكائنات الحية درجة ، لأن الكائنات النباتية والحيوانية الأولية تحتفظ بآثار التغيرات التي تؤثر فيها . فهناك زهور تتحرك مع الضوء في النهار ، فتظل حركتها بعض الوقت حتى بعد حلول الظلام . وتظهر بعض الحيوانات المائية على رمال شاطئ البحر مع الجزر وتعود إلى الماء مع المد ، فإذا وضعت في إناء زجاجي استمرت تفعل الحركة نفسها الدورية عدة أيام . ودرس الدكتور مارتن نوعاً من الديدان البحرية يعيش على شاطئ المانش ، يسمى كونفولوتا *Convoluta* ، وأثبت وجود هذه الدورات الحيوية واستمرارها حتى بعد انعدام المؤثر الذي يحدوها .

وتتبع العلماء نشأة الذاكرة في أنواع الحيوان كالأسماك والزواحف والطيور والثدييات المختلفة ، وانتهوا إلى هذا القانون الخاص بالذاكرة وهو : يزيد النسيان مع البذر التربيري

ل  
م

للزمن الذي ينقضى بعد الحفظ والاكتساب .  
وهذا القانون ، قانون النسيان الذي ينطبق على الحيوانات ،  
ينطبق كذلك على الإنسان ، مما يدل على أن الطبيعة تجري  
من حيث الحفظ والاكتساب ومن حيث النسيان تبعاً لقانون  
واحد .

فالعادات التي تكتسب مع التكرار تسهل العمل وتجعله  
أدق وأسرع وأتقن .

ولا نود الإطناب في بيان فوائد الذاكرة الآلية ، ولنتحدث  
عن مزايا ذاكرة المعرفة التي تمتاز بالشعور وبإدراك الزمان  
الماضي .

فالمدركات الحسية تحتاج في معرفتها إلى التجارب السابقة .  
انظر إلى الأشياء التي تحيطك ، والتي يخيل إليك أنها مألوفة  
لا تحتاج إلى ذكريات ماضية ، تجد أنها لو لا معرفتك السابقة  
بها ما استطعت الآن إدراكتها . هذا كتاب ، وهذا قلم ،  
وهذا باب ، وهذه زافدة ، وهذه منضدة ، وهذا الشخص  
الواقف أمامك هو أخوك محمد أو صديقك حسن . أيمكن  
أن تنسى هذه الأشياء فلا تعرفها ؟ نعم إذا أصيبت الذاكرة  
بعارض من العوارض ، فيحسن المرء ولكنه لا يعرف ما يحسه .  
فهذه حالة فتاة تسمى موديست Modiste ، ذكرها الدكتور

كُفْ سَنْسِ الْقَاءِ، كُلْمَ كَلْمَ كَلْمَ مَدْعَةٌ، وَلَدْ تَسْ  
سَدَتْ اصْفَاتِ الْهَبَّةِ أَوْ الْهَبَّاتِ.

١٤

جان ديلاي في كتابه «أمراض الذاكرة»<sup>(١)</sup> قال : «تبلغ  
موديست الثالثة والعشرين ، أصيبت برصاصة مسدس في  
الجانب الأيمن من المخ ، فأصبحت لا تعرف إذا كانت  
غمضة العينين الأشياء المألوفة التي توضع في يدها اليسرى .  
أنها لا تزال تحفظ بإحساسات اللمس ، ولكنها لا تميز  
نوع الأشياء . قالت عن قلم رصاص وضع في يدها اليسرى :  
«إنه صلب ، ناعم الملمس ، طويل ، مخروطي ، في نهايته  
نقطة مدببة» . وعن ملعقة : «شيء صلب بارد ، معدني ،  
رقيق من الوسط ، إحدى نهاياته مفرطحة ، والأخرى أضخم ،  
بيضاوية الشكل ، محفورة» . وهكذا تجهل موديست الأشياء  
المألوفة ، مع أنها تعرفها إذا وضعت في يدها اليمنى ،  
يدها اليسرى قد نسيت ما تعلمه اليمنى » .

لقد ارتدت هذه الفتاة كالطفل الرضيع قبل أن يدرك ،  
فالطفل في الشهر السادس يبدأ يمسك الأشياء التي تحيطه  
 بيديه ، كالكوب مثلاً أو الصندوق ، فيضع يده بداخله ،  
 ويتحسس جوانبه ، ويظل على هذه الحال مدة طويلة ،  
 لأن إدراك الصندوق بالبصر لا يؤدي إلى معرفة طوله وعرضه  
 وعمقه ، بل تتدخل في معرفته عدة إحساسات بصرية ولسمية ،

Jean Delay: Les Maladies de la Mémoire, Paris 1942, P. 31 (١)

وسمعيه أيضاً لإدراك صلابته ، وهذه كلها تجتمع وقتاً بعد وقت ، وترتبط بعضها ببعضها الآخر ، حتى يدرك الطفل بعد اجتماع هذه الخبرة على مر «الزمان» في صفحة «الذاكرة» أن هذا الشيء صندوق .

والذاكرة هي التي تعين الإنسان على التصور وعلى التخييل السليم أو المريض . فإذا استحضرت صورة صديق لك في ذهنك فإنما تستعين بالذاكرة على استحضارها . وإذا تخيل مهندس مشروعًا مثل زراعة الصحراء والبحث عن الوسائل المختلفة لريها فإنه يلتجأ إلى معلوماته السابقة .

والتمييز بين الذاكرة والتخييل معروف من قديم ، فهذا أسطو يقابل بينهما لأن الذاكرة تشمل الصور التي سبق إدراكتها في الماضي واحتزنتها الذاكرة كما تحافظ الخزانة بالأشياء . فالذكر في هذه الحالة يؤدي إلى التمييز بين الماضي والحاضر ، وبين الحقيقى والمتخيل . إننا نذكر الواقع ، ولكننا أحجار أن نتخيل ما نشاء . وفي ذلك يقول كانط : «إذا تخيلتُ متولاً في إمكانى أن أتمثل السقف في أسفله والأساس في الهواء ، ولكنني حين أذكر متولاً فأساسه دائمًا في أسفل وسقفه في أعلى الهواء» . وهذا التأليف الوهمي يعتمد على معرفة عناصر البيت وأجزائه التي سبق إدراكتها واحتفظت الذاكرة

بها . والحال كذلك في الأحلام .  
والذاكرة أساس الشخصية .

وليس للطفل الوليد شخصية ، إذ ليس له ماض ، وليست له ذاكرة . وهو عند ولادته ، ويظل كذلك بضعة أشهر ، جزء من العالم كنقطة من ماء البحر ، حتى يبدأ في تمييز أنيته ، والشعور بوجوده ذاتاً مستقلة هي « أنا » في مقابل ما عداه أي « اللا أنا » . وإذا تأملت الطفل في الشهر السادس تجد أنه يقبض على الأشياء بيده ثم يلقاها بعيداً عنه ، ثم يطلبها حتى إذا قبض عليها ألقاها ثانية ، وهكذا حتى يثبت عنده ، أو في « ذاكرته » أن هذه الأشياء مختلفة عنه ، وأن « أنا » الطفل مغایرة لهذه الأشياء . فإذا تتبعنا تكوين هذه الأنما ، وهي النفس ، وهي الشخصية التي تميز هذا الشخص عن ذاك وهذا الفرد عن هذا الفرد ، رأينا أنها ليست شيئاً آخر إلا اجتماع الذكريات واحتزانها عن الأشياء الخارجية التي ندركها ، وهذه الأشياء ذات فائدة لنا وهي التي نتعامل وإياها . وكلما كبر الطفل اتسعت أمامه دائرة هذه الأشياء ، وأصبح لكل فرد عالم خاص يعيش فيه ويدركه أكثر من غيره . سألني تاجر صديق تلقى تعليماً يسيراً فقال إنه يحاول أن يستكمل تعليميه وبخاصة اللغات كالفرنسية والإنجليزية لفائدتهما في

عمله ، ولكنها لا يحس في نفسه إقبالا ، ويضيق صدره إذا قرأ كتاباً ، وتعلم اللغات يحتاج إلى ذاكرة جيدة ، مع أن النسيان ليس طبيعة فيه ، لأنه يتذكر «فواتير» الحساب بأرقامها حتى بعد مضى عدة سنوات ، ثما سبب هذا الفتور ، وما علة ضعف ذاكرته في غير التجارة؟ وتعليق ذلك يسير ، لأن شخصيته شخصية تاجر ، فهو يذكر كل ما يتعلق بفنه ، والتجارة عنده هي العالم الذى يعيش فيه ولا يحفل بسواه . والحال كذلك في كل صاحب صناعة . فالممثل المطبوع يحفظ أدوار تمثيليه ولا يوجد في ذلك مشقة . فالشخصية تمتص من العالم الخارجى ما يلامها وتذكره ولا تنساه . إنها تفاعل بين الأنا والاللأنا تحتفظ فيه الأنا بأمور وتعمل غيرها ، وهذه الأمور التي تحتفظ بها لا تتوقف على تأثير اللأنا فقط بل على استعداد الأنا الطبيعي . وهذا هو السبب في أن الأشقاء تختلف شخصياتهم مع أن تأثير البيت واحد . وكذلك تلميذ المدرسة الواحدة الذين يعيشون معيشة داخلية ويخضعون لنظام واحد ويتأثرون بمعلمين بأعيانهم يختلفون فيما بينهم باختلاف أخذهم عن هذه التأثيرات .

والصفات المكونة للشخصية يكتسبها صاحبها من البيئة و تستقر في نفسه بالذكر ، وتعنى بهذه الصفات الميل إلى

الاجماع أو الانطواء على النفس ، وإلى العدوان أو المسالة ، وإلى النظام والترتيب أو الفوضى ، وغير ذلك . فالشخصية هي مجموعة ذكريات معينة تكتسب في الماضي وتظل مستمرة في الحاضر .

### والذاكرة أساس الحياة العقلية

( ذلك أن المعانى الكلية ، وهى حجر الزاوية في الحياة العقلية ، تكتسب من النظر إلى المعانى الخزئية ، فيحتفظ الإنسان بالتشابه منها ويرتفع إلى تكوين معنى كلى . وهذا ميل طبيعى ، نعنى القدرة على التعميم ، تعين الذاكرة عليه ) ويبدو هذا الميل عند الطفل الصغير ، فهو يعرف أباه ويميزه رجلا لأن له شاربًا ، فإذا رأى رجلا آخر له شارب قال عنه «بابا» . وعندما يكبر بعض الشيء يجد أن الشارب ليس من الصفات الخواهرية التي تميز الرجال . وعلى هذا النحو يدرك الطفل عندما يبلغ الثالثة أو الرابعة المعانى الكلية العامة للأشياء التي تحيطه كالنفاح والبرتقال والباب والنافذة والعصفور والقطة والكلب وما إلى ذلك ، حتى إذا قدمت إليه تفاحة ميزةها وعرف أنها من هذا الصنف .

وعلى هذا النحو أيضاً تنشأ المبادئ العقلية التي تكتسب من التجارب وتحافظ بالذاكرة ، مثل مبدأ التشابه الذي رأينا

أنه أساس تكوين المعانى الكلية ، ومبرأة السببية ، وهو عماد العلوم . وقد أنكر الفلاسفة حقيقة هذا المبدأ وناقشو صدقه وذهبوا إلى انعدام الضرورة التي تربط بين الأسباب والمسبيات ، كما فعل الغزالى وهيوم وكثير من المحدثين . ويقول الغزالى في كتابه «هافت الفلاسفة» ليست النارهى التي تحرق القطن إذ يجوز في المستقبل أن ينعدم فعل النار . ولكن الطفل الصغير الذى لا يعرف النار ولا يعرف أنها تحرق ، يرى ذلك لأول مرة ، ويجرب ذلك على نفسه ، فإذا اقتربت يده من النار وأحس بألم إحراقها ، ثبت ذلك في ذاكرته ، فلم يعاود اللعب بالنار ، وأصبح يدرك أن النار «علة» الإحرق ، بل أكثر من ذلك يعمم الطفل السبب ويطلقه على الأمور المشابهة ، ولذلك جاء في أمثال العامة: «اللى يخاف من الشعban يجري من الجبل» .

حتى إذا ارتفت الإنسانية ، واجتمعت لديها التجارب جيلاً بعد جيل ، اشتد ساعده العلم ، وصاغ العلماء القوانين والنظريات . وليس القوانين العلمية إلا تلخيصاً واسعاً للمشاهدات يستند إلى الذاكرة ، مثل قولنا الحرارة تمدد الأجسام ، والخشب يطفو على وجه الماء ، والجسم المغمور في الماء يندفع من أسفل إلى أعلى بقوة تساوى حجم السائل المزاغ ، وهكذا .

وليسَتْ هذِهُ القوانيِنْ مِنْ عَمَلِ فَرْدٍ وَاحِدٍ ، بَلْ هِيَ أَثْرٌ اجتماعيَّ نَتْيَاجُهُ الْحُضَارَةِ وَنَتْيَاجُهُ الْذَّاكرَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَتَقْدِيمُ التَّجَارِبِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَى مِرْأَتِ الْأَجْيَالِ . حَتَّى إِذَا ازْدَحَمَتِ الْعُقُولُ بِالْمَعْلُومَاتِ ، وَعَجَزَ الْفَرْدُ الْوَاحِدُ عَنِ اسْتِيعَابِهَا فِي صَفَحَةِ ذَاكْرَتِهِ ، احْتَاجَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَى وَسِيلَةٍ أَكْثَرُ رِسُوخًا لِحَفْظِ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ فَاخْتَرَعَتِ الْكِتَابَةُ ثُمَّ الْطَّبَاعَةُ وَأَنْشَئَتِ الْمَكَبِّاتُ الَّتِي تَرْخِرُ بِآلَافِ الْمَجَلَّدَاتِ وَالَّتِي تَخْزِنُ تَارِيَخَ الْأَمَمِ وَسِيرَ الْأَفْرَادِ وَالْمَلُوكِ وَأَنْوَاعَ الْعِلُومِ الْمُخْتَلِفَةِ مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَعْيِهَ ذَاكْرَةُ فَرْدٍ وَاحِدٍ .

وَكُلَّمَا | أَرْتَقَتِ الْحَيَاةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ وَتَقْدَمَتِ الْحُضَارَةُ أَصْبَحَتْ حَاجَةُ الْإِنْسَانِ إِلَى الْمَعْرِفَةِ الْوَاسِعَةِ بِالْأَحْدَاثِ الْبَحَارِيَّةِ وَالْمَاضِيَّةِ ، وَبِالْفَنُونِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالصَّنَاعَاتِ الْمُتَبَايِنَةِ ، وَبِالْعِلُومِ الَّتِي تَقْوِيمُ عَلَيْهَا هَذِهُ الْفَنُونُ وَالصَّنَاعَاتُ أَشَدَّ وَأَلْزَمَ حَتَّى يُسْتَطِعُ مَسَايِّرَةً رَكْبَ الْحَيَاةِ . هَذَا إِلَى أَنَّ الْحَيَاةَ الْحَدِيثَةَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى الثَّقَافَةِ الْعَامَّةِ الْوَاسِعَةِ فَقَطَّ بَلْ إِلَى « التَّخَصُّصَ » الشَّدِيدِ فِي كُلِّ فَنٍ ، حَتَّى لَقِدْ انْقَسَمَ الطَّبِّ إِلَى فَرْوَعٍ ، وَانْخَتَصَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ كُلِّ فَرْعٍ إِخْصَائِيًّا لَا يَتَعَدَّهُمْ عَلَى اخْتِصَاصِ غَيْرِهِ . وَهَذَا هُوَ الشَّأْنُ فِي الزَّرَاعَةِ ، كَالَّذِي يَخْتَصُ بِزرَاعَةِ الْقُطْنِ ، أَوِ الْقَمْحِ أَوِ الْأَرْزِ ، أَوِ الْخَضْرِ ، أَوِ الْفَاكِهَةِ . وَقَدْ رَأَيْتُ فِي الْرِّيفِ قَوْمًا

ينقطعون إلى زراعة الطماطم ، وآخرون إلى غرس الموز ويسمى الواحد منهم « موازاً ». وحدثني مزارع أنه مختص بزراعة البطاطس فقط . وكذلك الحال في التجارة وسائر الفنون والصناعات .

وإذا كانت هذه المعلومات لا تحصل إلا بعد زمان طويل ، يقضى المرء بعضه في المدرسة ، وببعضه في الحياة العامة ، وكانت هذه المعلومات واسعة سعة عظيمة تشمل المطلولات من الكتب ، احتاج الطلاب ولا ريب إلى ذاكرة قوية منتظمة يستعينون بها على تحصيل هذه المعلومات ، وبخاصة لأن المجتمع الحديث يحكم على الفرد بمقدار علمه ، أي بمقدار تحصيله ، فلا يقبل صاحب العمل عاملاً أو موظفاً إلا بعد امتحان ، ولا ينجح الطالب في المدرسة إلا بعد اجتياز الامتحان . ومن أجل ذلك برزت قيمة الذاكرة عاملاً هاماً من عوامل النجاح في الحياة .

ونشأت عن ذلك دراسات حديثة تهدف إلى بيان أقوام الطرق للتذكر وأحفظها عن النسيان ، وأجرى العلماء تجارب استخلصوا منها قوانين التذكر وقوانين النسيان ، وانتهوا إلى أن السبيل القوي لحفظ المعلومات واستحضارها عند الحاجة إليها هو حسن تنظيمها وتصنيفها، ثم ربطها بعضها ببعضها

الآخر ، وأن يكون الإنسان سيد ذكرياته بطلبها حين يحتاج إليها فتستجيب له حتى لا تصبح عبئا ثقيلا لا قيمة له .

ومع هذه الفوائد الكثيرة للذاكرة فيسائر أنواع الحياة ، فالنسوان مفيدة في كثير من الأحيان ، بل قد يكون ضرورياً . والذاكرة في واقع الأمر مزدوج من الذكر والنسوان ، حتى لقد ذهب بعض علماء العربية إلى أن لفظ الإنسان مشتق من النسيان .

ولا تعجبن من قولنا إن النسيان ضروري للحياة النفسية ، لأن ما تقع عليه أبصارنا كل يوم وكل ساعة وكل لحظة لا يدخل تحت حصر ، وكذلك جميع ما يصل إلينا بطريق الحواس ، ولو ذكرنا كل شيء لاختلط الخليل بالتاوه ، وامترج المفید باللغو والباطل . وقد حدثتك عن ميل الطفل الطبيعي إلى صوغ المعانى الكلية التي يركز فيها المجموعة الواسعة من المحسوسات ، وحدثتك عن اتجاه الحضارة إلى تلخيص العلوم في صيغة قوانين عامة تغنى عن الجزئيات .

ثم إن الحياة بطبعها متغيرة متغيرة يحتاج فيها المرء إلى ملاءمة نفسه مع هذه الألوان المتغيرة من الحياة ، فيضطر إلى تحرير نفسه من الماضي بنسيانه ليتسنى له التوافق مع الحياة الجديدة . لذلك كان النسيان ضرورياً لحرية الإنسان ،

فلا يعاود حياته الماضية كما هي .

هذا إلى أن كثرة ترداد الذكريات الماضية يجعلها عادمة أوتوماتيكية ، فيصبح المرء كالآلة ، أو كالحيوان الذي يتصرف بالغرائز ، ويصبح عبداً لها لا سيداً حاكماً صاحب سلطان عليها .

ويحتاج استخدام الذاكرة إلى اختيار ، وينبغي أن نحسن هذا الاختيار إذا أردنا النجاح في الحياة ، فلا ينفك المرء عبداً لحياته الماضية يعيش فيها أبداً ولا يخرج عن دائرها .

وكتيراً ما يكون التسیان رد فعل طبيعي لسلامة الحياة واستقامتها ، فقد تمر بالإنسان ذكريات فاجعة كلما استعادها تألم الألم الشديد ، كالذى ذهبت ثروته أو فقد ابنه الوحيد ، فإذا لم يستطع إلى التسیان سبيلاً بإرادته ، أو لم تعينه الطبيعة بفقدان الذاكرة ، فضل الموت على حياة مملوءة بالآلام ، فأقدم على الانتحار . والشواهد على ذلك كثيرة في التاريخ نذكر منها مأساة كليوباترة ومارك أنطوان .

## صفحات الماضي وأغوار الزمان

ذاكرة المرء كتاب تسطر صفحاته على مر الأيام ، فهى أشبه بالمفكرة التي يسجل فيها الإنسان يومياته ، ويكتب فيها الأحداث التي مرت عليه ليرجع إليها في المستقبل عند الحاجة يقرأ ماضيه . وكل منا يكتب يومياته في مذكرته على نحو معين هو الذي يهمه ، وكذلك ذاكرة كل واحد منا لا تحفظ إلا بما شاء أن يسجله ، فهى تثبت وتمحو ، ثبتت ما يهمنا وتغفل ما لا نحفل به . ~~فلا تتحسّن~~ <sup>أن</sup> الذاكرة تسجل كل بادرة وظاهرة وواقعة .

وكما تصاب اليوميات الآفات كل منها صفحات ، ويهت الخبر الذي تكتب به بعض الصفحات وبخاصة القديمة منها ، وقد يتزرع منها بعض الصفحات فتتطاير وتضيع ، وقد تصاب بخرم تذهب معه بعض الأوراق ، كذلك الذاكرة الإنسانية تصيبها مثل هذه الآفات ، فتضيع منها صفحات ، ويهت بعضها الآخر ، ومحى بعضها الثالث ، وكل ذلك في صفحات الماضي الذي سجله المرء خلال الحياة . وهذه الآفات هي التي يعبر عنها بأمراض الذاكرة ، وهي التي تحدد أنواع

النسیان ، مما تفرد له فصلاً برأسه فيما بعد .

أما الآن فنود أن نتحدث عن هذا الزمان الذي يضم في صدره هذه الذكريات ، ما هو ، وعلى أي هيئة يكون ؟  
الزمان هو الماضي والحاضر والمستقبل .  
أو هو ما فات وما هو آت .

أما الآن أو الحاضر فهو نقطة وهمية في بحر الزمان ، لأنك كلما أردت الوقوف عندها مر بك الزمان ، فإذا بها تصبح من جملة الماضي .

وإذا وقفت عند الحاضر واستغرقت فيه نسيت الزمان ، ويطول هذا النسیان بمقدار استغرائك فيها أنت فيه واستمتعاك به . وقد تمر بك الساعة كأنها لحظة ، أو تمر بك اللحظة وكأنها دهر . ومن المعروف أن الناس يقطعون الوقت بالحدث والسمير والاسماع إلى الموسيقى والذهب إلى السينما أو دور التمثيل . فأنت تقطع الوقت بأن تستغرق في شيء خارجي ينسيك نفسك فينسيك الزمان .

من أجل ذلك كان التذكرة وثيق الصلة بالزمان ، أو هو الزمان عند بعض الفلاسفة .

قد ترى شخصاً فتحدث نفسك أين رأيته ، وتتفتش في ذاكرتك وتقلب صفحات كتابها حتى تدرك أنك رأيته

في الإسكندرية في مكان معين من العام الماضي ، وقد تحدد الوقت أكثر من ذلك فتعرف اليوم وال الساعة . مهما يكن من شيء فالذى يهمنا هو استحضار الذكرى من الماضي إطلاقاً ، أما تحديدها في مكان معين و زمان معين فهذا شيء آخر مكمل للذاكرة الحيدة . ولنفرض أنك دخلت حجرة لأول مرة فأدركت فيها الأثاث موضوعاً بشكل معين وأدركت الصور المعلقة على الجدران ، ثم دخلت هذه الحجرة نفسها بعد عام فإنك تدرك في الحال أنك قد سبق لك رؤية هذه الأشياء في زمن مضى سواء عرفت الوقت الماضي تماماً في اليوم وال الساعة ، أو عرفت فقط أنه كان في الماضي . أما إذا نسيت ، و وقفت في هذه الحجرة وكأن كل شيء فيها جديد بالنسبة إليك ، أصبح الماضي الذي مر بك كأن لم يكن ، وإذا أنت تعيش في الحاضر فقط .

فالنسوان فقدان بعض أحداث الماضي ، والنسوان المستمر فقدان الزمان .

وهذه قصة امرأة اسمها نويمى Noémi ( عن كتاب جان ديلاي ) تبلغ من العمر الرابعة والستين ، وقد أدخلتها أخوها في مستشفى الأمراض العقلية لأنها فقدت الذاكرة تماماً ، وأصبحت لا تعيش إلا في الحاضر .

إنها تذكر اسمها ولكنها لا تذكر سببها ولا عنوان سكناها .  
وهي لا تدري أنها كانت ذات مهنة مع أنها زاولت الطب ٢٥ سنة ، وكانت تشرف بنجاح على إحدى المستشفيات . إنها لا تكاد تقرأ الصحفة حتى تنساها ، وتنسى الإجابات على الأسئلة ، والزوار الذين يحضرون لرؤيتها ، وتعتقد أنها ترى وجوه المتصلين بها منذ مرضها لأول مرة مع أنها تراهم كل يوم .  
وقد خيل إلى بعض الفلاسفة أن الزمان ليس شيئاً خارجياً

له حقيقة واقعة ، بل هو من أنفسنا ، كما ذهب إلى ذلك كاظنط فقال : إن الزمان صورة عقلية أولية نفرضها على الأشياء حين ندركها . ويقول برجسون في كتابه «المعطيات المباشرة للشعور» : إن العاقب الذي فراه في مرور عقارب الساعة إنما يوجد بالنسبة للاحظ شاعر يتذكر الماضي .

ينشأ إدراك الزمن والإحساس به من تقلب المظاهر الخارجية مع اختلافها في النوع والشدة وتناسبها في الإيقاع ، كاختلاف الليل والنهار ، وانتقال الشمس من المغرب إلى الشرق وما إلى ذلك . فإذا كنا في النهار ذكرنا أننا كنا بالأمس في الليل ، ولو نسينا ذلك الليل ما أدركنا هذا العاقب . ولو عشنا في ليل مستمر ما عرفنا الأيام . وقد حكى مسجون وضع في زنزانة لا نوافذ لها ولا إضاءة فيها أنه لم يعد يعرف الوقت . وعند

زوال تعاقب الأشياء واحتلافيها نفقد الإحساس بالزمان الذي  
 يدور ، أو بالأشياء التي تتحرك داخل الزمان . وهذا ما يحدث  
 لمن يجلس على شاطئ البحر الهدى ويستغرق في النظر إليه ،  
 فينسى كم لبث وينسى الزمان . ولذلك كان النوم الهدى  
 العميق من الفرات التي يقطعها الماء خارج الزمان . ونحن  
 لا ندرك كم مضى علينا من الوقت في النوم إلا حين ننظر إلى  
 المظاهر الخارجية فنرى أن النور قد أشرق ونعلم أن الصبح قد  
 طلع . وفي ذلك يقول تعالى : « أو كالذى مر على قرية وهى  
 خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله  
 مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبشت يوماً أو بعض يوم » .  
 ومع ذلك فالإنسان يستطيع إدراك الوقت دون الاستعانة  
 بمقاييس خارجى كالساعة الدقاقة مثلا ، يدركه وهو نائم ،  
 فإذا كنت معتاداً أن تستيقظ في الصباح الساعة السادسة كل  
 يوم لتذهب إلى عملك ، فإنك تستيقظ في هذا الموعد تماماً  
 حتى لو كان اليوم يوم عطلة . وروى شخص أنه لم يكن معتاداً  
 النوم بعد الظهر أبداً إلى أن اضطجع ذات مرة على أريكة ،  
 فأخذه النوم عصراً واستيقظ عند الأصليل فرأى النور باهتاً  
 قبل الغروب فخيّل إليه أنه قد استيقظ في الفجر قبل الميعاد ،  
 فأغمض عينيه ليكمل نومه ، ولكنه لم يستغرق في النوم ، ففتح

عينيه ليرى أن الظلام قد أصبح دامساً، وعندها فقط أدرك أنه كان قد نام بعد العصر.

وروى عن بعض الفلاسفة المحدثين أنه لم يكن يمكن تحمل ساعة اعتماداً على إحساسه الشخصي بالزمن. وهكذا كان الناس يفعلون قبل اختراع الساعات الدقاقة.

جملة القول الذاكرة هي التي تمدنا بالإحساس بالزمان وتعاقب الأحداث، وهي التي تهيئ لنا سبيلاً لقياس الزمان.

والذاكرة هي التي تمدنا بفكرة الزمان المستقبل قياساً على الماضي. والواقع أننا لا نبصر المستقبل، بل نتبصره، أو نتوقعه. والحياة في جملتها حركة إلى الأمام يعمل الإنسان حسابها بمقتضى ما فات. ولو ذهب عن الإنسان هذا المعنى لأصبح كالحيوان الذي يعيش في حاضره، أو تكيفه الظروف الخارجية، أو تدفعه الغريزة العميماء، أو كالوليد الرضيع الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولكنه يعيش مع ذلك.

ولست نحيا حياة الوليد الذي لم يدرك بعد، بل حياة العقلاء الذين يعتمدون على ماضيهم في العمل مستقبلاً. ولقد استطاع الإنسان أن يجرد فكرة الزمان، وأن يستخلصها، وأن يمضي بها في المستقبل إلى غير نهاية، فنشأت من ذلك فكرة «الآبد» وهو لا نهاية الزمان في المستقبل، كما أن

«الأزل» لا نهاية الزمان في الماضي ، وكان الأزل والأبد عmad  
سائر الأديان عند المتحضرين . بل لقد طبق الإنسان هذه  
الفكرة على نفسه فاعتقد في خلود الروح بعد فناء البدن .

فالذاكرة هي التي تمدنا بفكرة الزمان ماضيه وحاضرها  
ومستقبله ، فالذاكرة والزمان متصلان اتصالاً وثيقاً .

وقد أجرى بعض العلماء أبحاثاً لبيان هذه الصلة سواء  
عند الحيوان أو عند الإنسان فيما يختص بما سموه «الزمان  
الحيوي» أو البيولوجي . والزمان الحيوي متصل بال الحاجات  
البيولوجية كالطعام والشراب واليقطة والنوم وإخراج الفضلات  
وما إلى ذلك .

وهذا الزمان الحيوي أساس الذاكرة الآلية التي حدثتك  
عنها .

وقد أثبت العالم الروسي بافلوف هذه الصلة عند بحثه عن  
الأفعال المترددة المتعلقة بشرط . وفي تجربته المشهورة على  
الكلب ، كان يقدم له الطعام في وقت معين فيفرز الكلب  
لللعاب عند رؤية الطعام ، لأن الطعام مؤثر طبيعي يدفع إلى  
إفراز اللعاب . وكان يدق مع تقديم الطعام جرساً ، وبعد عدة  
مرات كان يكفي أن يسمع الكلب دقة الجرس حتى يفرز  
اللعاب .

ونحن كذلك نحقق حاجاتنا الطبيعية في مواعيد تعلمهاها وتعودناها طبقاً لدورة زمانية لا تخطئ . فإذا حان موعد الغداء شعرنا بالجوع ، ويقضى الطفل الرضيع حاجته في مواعيد دون أن يلوث فراشه . وإذا تعود أحدها أن يستيقظ في ساعة معينة استيقظ في هذا الموعد حتى في أيام العطلة . وأول أيام الصوم في رمضان يكون عسيراً لخروج المرء عما ألفه . وفي بعض الأحيان ينسى الصائم فيأكل نهاراً . ومن الفكاهات التي تروي أن صائماً دخل المسجد يصلى الظهر جماعة فتحسس جيبه فوجد فيه بلحاً ، فأنخرج بلحة وأخذ يأكلها ، فغمزه جاره يريد أن ينبهه وينهره ، فقال له « والله هذه آخر بلحة وليس معى غيرها » .

وذهب بعض العلماء في مباحثهم الأخيرة إلى أن الغدة فوق التل모سية Hypothalamic هي التي تحتفظ بالإيقاع الزمني الناشئ من الدورات الحيوية كابلوجع والعطش والنوم وما إلى ذلك ، فهي أشبه بالساعة الدقاقة للكائن الحي .

والذاكرة هي أساس الزمان الاجتماعي ، هذا الزمان الذي اصطلاح المجتمع عليه في تسخير أموره وضبط أحوال معاشه . فقد اهتدى قدماء المصريين إلى السنة الشمسية لحاجتهم إلى الزراعة ومعرفة مواعيد الحرف والبذر والحساب ، وأصبح الزمان

موضوعياً خارجياً يقسم إلى أعوام، وتقسم السنة إلى فصول وإلى أيام. ولم يكن الزمن في أول الأمر ثابتاً موضوعياً كما أثبت دور كهايم وماوس في أبحاثهما الاجتماعية، بل نشأ أولاً في ضمير الشعوب البدائية لخدمة الاحتفالات الدينية والأعياد والمواسم ثم نشأ التقويم السنوي تابعاً لهذه الاحتفالات والأعياد. ثم انتقلت فكرة zaman من الذاتية إلى الموضوعية وأصبح zaman عاماً للمجتمع بأسره، لا ملكاً لشخص، حتى أصبح الفرد مضطراً إلى الترام توقيت المجتمع الذي يعيش فيه والخضوع لقيوده. وإذا كره الإنسان المجتمع هرب منه، وهرب من هذه القيود، وتحلل من هذه الالتزامات، فترى الطالب يذهب متأنحاً إلى مدرسته وكذلك الموظف إلى عمله، أو يستعين المرء بما يجعله ينسى zaman ، فينغمس في شرب الخمر، أو تدخين الأفيون والخشيش، وهذا ما بينه مورو دى تور وكوبنسى وبودلير في مذكرات آكل الأفيون، حيث يخيل للمدمن أن الدقيقة دهر وأن اللحظة التي يعيشها أبداً لا ينتهي.

وإنما استطردنا إلى الكلام عن zaman لأنه أساس الذاكرة يحتوى في صدره على سر الأحداث الماضية ويطوئها في زوايا النسيان. وإذا أسفز zaman عن وجهه أشرقت الذكريات. وإذا احتجب حجبها معه وغابت عن الأنفاس.

فما هو علة إشراقه وكيف تسجل الأحداث على صفحة الزمان .

وما سبب احتجابه وكيف تخفي الذكريات في خبابا النساء .

هذا هو موضوع الفصول المقبلة حيث نتحدث في الفصل الآتي عن طرق التعلم والاكتساب ، وعما سماه العلماء « بخط التعليم » وكيف يتوجه صاعداً على مر الأيام ، لأن النساء متوقف على التعلم ، فكلما كان التعلم أجود وأنظم وأثبتت كان النساء أقل وأبطأ . وإذا أردنا أن نعالج النساء فعلينا أن نحسن التعلم .

ثم نتحدث في الفصل الذي يليه عن « خط النساء » الذي يتوجه هابطاً على عكس خط التعليم الذي كان يتوجه صاعداً . وكل الخطين يبينان التعلم العادي والنساء السليم . أما الشذوذ في النساء الذي يعد مرضًا فهذا باب آخر .

ولا نود في هذا الكتاب الصغير أن نشير إلى مذاهب القدماء الذين زعموا أن النفس تعلم كل شيء قبل اتصالها بالبدن ، حتى قال أفلاطون إن العلم تذكر والجهل نسيان . أو مذاهب الذين يعتقدون في علم النفس بعد مفارقتها البدن سواء في حالة الحياة أم بعد الموت ، كما زعم الرئيس ابن سينا وغيره ، لأن هذه المباحث تخرجنا عن نطاق العلم .

## خط التعلم

حضرت العام الماضي «سirk مدرانو» الذي نصب خيامه بالقرب من ميدان محطة مصر . ولم يكن الدافع لى مجرد اللهو وتنزية الفراغ أو الترويح عن النفس ، بل لتأمل والدرس والاطلاع على تجارب واقعية ، أو نتائج التجارب التي أجرتها أصحاب السirk ، وهم أشبه بالحواء ، على حيوانات يخيل إليك أنها أبعد الأشياء عن التدريب والترويض ، كالسبع والفيل والنمر والخيول والكلاب وغير ذلك .

وقد يخيل إليك أن السبع يسمع كلام مروضه ، كما يسمع الطفل المطيع كلام أمها وينفذ أمرها ، فيصعد درجاً ثم يقفز من خلال حلقة ملتهبة بالنار ثم ينزل الدرج من الناحية الأخرى . فكيف وصل المروض إلى تدريب هذا الوحش وتأديبه حتى يبلغ به هذا الحد من السلوك الخالق لطبعه من جهة ، والمقييد بنظام دقيق موقوت لا يخطئ من جهة أخرى ؟

فن الترويض خاضع لقوانين نفسانية ، وهذه القوانين تعم الحيوان الأعمى والإنسان الذي يدرك ويفهم .

فالإنسان حيوان ولا يمتاز عن سائر الحيوانات إلا بالكلام ،

ولذلك عرفوا الإنسان بأنه حيوان ناطق .

وهو يتعلم الحركات الآلية كما يتعلم الحيوان ، ويتعلم فوق ذلك كيف يتكلم أي اللغة ، وقد يتعلم عدة لغات إذا احتاج إلى التفاهم مع قوم يتكلمون بغير لسانه ، بل أصبح الإنسان مع تقدم الحضارة وانتشار التعليم في حاجة إلى تعلم لغة أخرى أجنبية أو عدة لغات ليطلع على ثمار الأفكار وقرائح العقول وأحدث المخترعات وأخر الاكتشافات العلمية حتى يساير ركب الحضارة .

واللغة ألفاظ تحمل معانٍ. واللفظ رمز إذا لم تفهم معناه أصبح مجرد صوت يصعب تذكره . ولنست الألفاظ هي الرموز الوحيدة التي تجري بين الناس في المجتمع . فالحساب والخبر والقوانين العلمية المختلفة رموز كذلك . وما معنى س + ص = كذا ، وما معنى جدول الضرب؟ ومع ذلك فالطفل حين يذهب إلى المدرسة مضطر إلى تعلم هذه الرموز اللغوية والحسابية وغيرها ، على الرغم من خلوها من المعنى وظهورها بمظهر الظلام . ولذلك يشوى التلميذ في تعلم هذه الأمور ، وليس له من سبيل إلا أن يلتجأ إلى الذاكرة الصماء .

فالذاكرة منها آلية حركية ، ومنها لفظية وهي التي سميت بها في أول الكتاب ذاكرة المعرفة ، وهي المخصوصة بالإنسان .

وقد أجرى العلماء تجارب كثيرة على كلا النوعين من الذاكرة .

ولنبدأ بالذاكرة الآلية ولننظر كيف يتعلم الحيوان.

ومن التجارب المشهورة تجربة «المتاهة» ، وهي صندوق يقسم من الداخل بعوارض يتبعها الحيوان ، الذي يتحرك بدافع من الجوع وطلب الطعام الموضوع في الجانب الآخر . ويلاحظ أن الحيوان يندفع هنا وهناك ، وكلما رأى الطريق مغلقاً عاد وجرب الاتجاه في طريق آخر ، حتى يهتدي إلى الطريق الصحيح . وأول من أجرى هذه التجربة هو العالم النفسي يركس Yerkes من أئمة المذهب السلوكي ، وذلك منذ نصف قرن مضى ، فوضع سلحفاة في صندوق متاهة وجلس يراقبها فبلغت المدف بعد ساعة وخمس وثلاثين دقيقة . وفي المرة الخامسة استغرقت السلحفاة ١٦ دقيقة . وفي المرة العاشرة ٤ دقائق ، وفي المرة العشرين ٣ دقائق و ٢٠ ثانية .

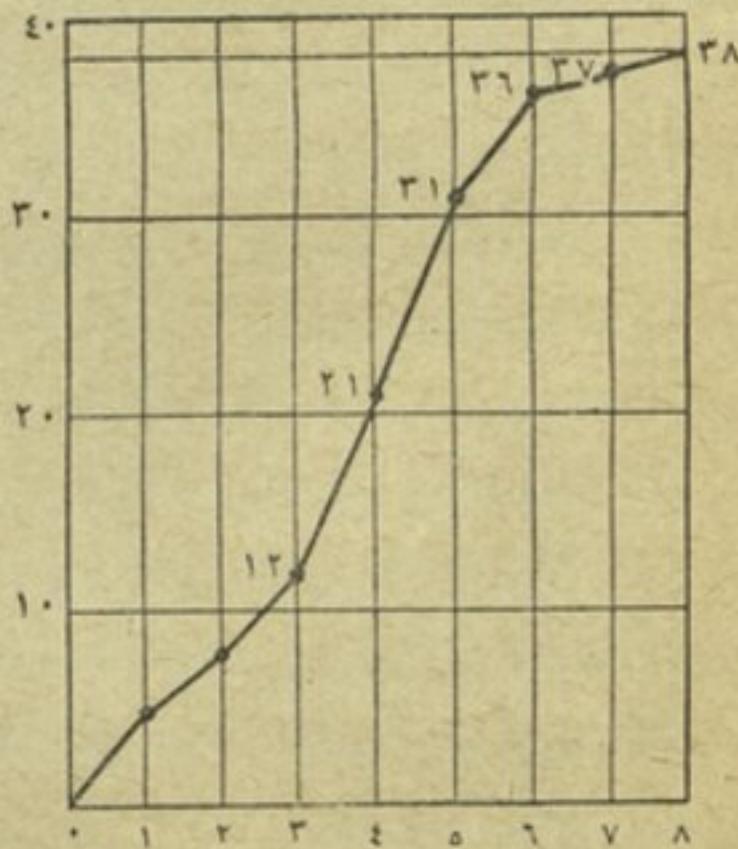
فالسلحفاة تتعلم من التجربة وحذف الأخطاء Trial and error

والإنسان يتعلم على هذا النحو أيضاً . ولنفرض أن السيد مصطفى عبد العزيز أراد أن يتعلم الآلة الكاتبة ، فاشترى آلة حملها إلى منزله ، وجلس أمامها وأخذ يجرب كتابة رسالة إلى صديق وكانت تبدأ كما يلى: «حضره السيد محمد أبو ريشة» . فلما أراد أن يكتب السطر الثاني رأى غلطًا كثیراً في السطر الأول ، قاف بدلاً من ضاد ، واو بدلاً من راء ، وهكذا ، فإنه يضيق ويعاود

ثانية ، ويحاول تجنب الأخطاء الأولى ، فيجد أنه تحسن بعض الشيء في المرة الثانية ، فيعاود ثالثة ، ومن جملة هذه المحاولات التي يتتجنب فيها الأغلاط السابقة يتحسن تعلمه ويسير إلى الأمام . وإليك نتيجة التجربة التي أجرتها بيرون Piéron على شخص يجرب بقلم الآلة الكاتبة في عبارة معينة :

عدد المحاولات      ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١

عدد الضربات الصحيحة ٣٨ ٣٧ ٣٦ ٣١ ٢١ ١٢ ٨ ٥



رسم بياني يوضح تقدم التعلم

ينصع خط التعلم هنا لأمور ثلاثة : المرك ، وعدد مرات المحاولة ، والمكافأة .

أما المرك فهو البعث الخارجي الذي يشتق إليه الحيوان أو الإنسان فيندفع بجميع قواه النفسية إلى بلوغه . فالسلحفاة ت يريد بلوغ العش ، ومصطفى عبد العزيز يريد تعلم الآلة الكاتبة لنفعها في عمله .

والأصل في المرك أن يكون طبيعياً ، ولذلك كان التعلم طبيعياً في الكائن الحي . فطلب الطعام ، والانعطاف نحو الجنس الآخر ، وبعض الحاجات الفسيولوجية كلها محركات فطرية ، وهي الأصل كذلك في تحريك الإنسان ، لولا أنه مع الخضارة ظهرت محركات جديدة دعت إليها الضرورة الاجتماعية ، كالمال ، والمنازل الاجتماعية المختلفة التي تجلب السلطان أو الشهرة أو المجد ، والعلم ، وغير ذلك .

ولا تزال الوظائف الحكومية هي المرك الأكبر لخدمة الشعب في مصر ، والسبيل إلى بلوغها هو الالتحاق بالمارس والحصول على « الشهادة » لأنها مسوغ التعيين في الوظيفة . وحين اجتمعت كلمة الأمة على إخراج الإنجليز من منطقه قنال السويس . ورأى المصريون ألا سبيل إلى إجلائهم إلا بالقتال ، تهافتوا على تعلم السلاح واستعماله ، وأنشئت معسكرات التدريب

في حرم الجامعة وفي غيرها من الميادين ، فكان إجلاء الإنجليز هو المحرك لتعلم الفدائين .

إذا فعل المحرك فعله ، ويعثُرُ الهمة ، واندفع الإنسان يتعلم ، فليس يكتفى مرة واحدة يجرب فيها السلوك الجديد كي يتلقنه ، ولا مرتان ، بل مرات كثيرة يتحسن خلاها ، ويسير « خط التعلم » كما رأينا إلى الأمام بسرعة ، ثم يصل إلى حد يقف عنده .

فالنكرار ضروري في تثبيت الحفظ وتمكين التعلم .

أما لماذا يميل الحيوان أو الإنسان إلى تكرار ما سبق فعله فذلك متوقف على قانون سماه الأستاذ ثورنديك « قانون النتيجة » Law of effect ، فالسلحفاة حين تبلغ العش وهو هدفها أول مرة ترناح ، وكذلك الذي يتعلم الآلة الكاتبة حين يصيب الحرف الصحيح يفرح ويشعر بذلك ، هي لذة الظفر والنجاح . والنصر عند بلوغ الهدف مكافأة تعوض الإنسان عن متابعته وتنسيه آلام الكدح . فالعمل الذي يتحقق حاجة الإنسان يحتفظ به ويميل إلى تكراره ، هذا هو منطوق قانون النتيجة . ويعيل بعض العلماء إلى تعليل هذه القاعدة بأن الأعصاب تتخلل في حالة توتر حتى بلغ الكائن غرضه فترتخى أعصابه ارتياحاً . والحيوان يميل إلى الارتياخ لا إلى التوتر ، ولذلك يكرر

## ذلك العمل .

هذا هو تفسير التكرار الجساني وأثره في اكتساب المهارة  
أما التكرار اللفظي وأثره في الحفظ فله تعليل آخر نذكر  
فيما بعد .

ولاتعلم طريق آخر خلاف المحاولات والابتعاد عن الغلة  
هو « التعلم الشرطي » الذي بين أساسه العالم الروسي بافلوف  
وتجربته على الكلب الذي يسمى لعابه عند دق بحرس قد عرفها من  
قبل . وقد حدثت في أول هذا الفصل عن الحيوانات التي يشاهد  
المتفرجون في السيرك تقوم بالعجب من الأفعال . ومن المشاهد  
المألوفة عندنا القرداتي الذي يعرض فنه على الجمهوه فيطلب  
من القرد أن يضرب « تعظيم سلام » فيقف على قدميه الخلفيتين  
ويرفع يديه للتحية . أو العرب الذين يرقصون الخيل على صوات  
الموسيقى . وقد سألت أعرابياً كيف درب حصانه على الرقص .  
وعجبت أن الحصان على غير ما اعتقاد لا يسير على توقيع  
الوزن الموسيقي ، بل الراكب هو الذي يشد اللجام شدّاً معيناً  
ويضربه بالمهماز ضرباً خاصاً ، بحيث يستجيب الحصان  
للسند والهمز فيخيل إليك أنه يستجيب من تلقاء نفسه للموسيقى .  
ويعتمد هذا التدريب كله على مبدأ ربط المؤثر الطبيعي  
بمؤثر جديد ، بحيث يتعلق المؤثر الطبيعي بهذا « الشرط » ،

ومن أجل ذلك سمي ذلك التعلم شرطياً ، أى متعلقاً بشرط جديد . ففي المراجع الواسعة حين يرغبون في رد الماشي عن الأسوار ويرغموها على البقاء داخلها يكثرون الأسوار حتى إذا هجمت عليها البقرة أحسست بالشدة الكهربائية في أنفها ، وفي الوقت نفسه ترى السور ، وعندئذ يكفى أن ترى البقرة السور فتبعد عنه . ونحن نتعلم ، ونعلم أبناءنا ، ونعلم الشعب ، طبقاً لهذا القانون . نحن نعلم الطفل الوليد قضاء حاجته في مواعيد وفي إزاء خاص . ونعلم أفراد الشعب الذين يقودون السيارات أن يقفوا في الطريق عند رؤية الضوء الأحمر ، حتى يصبح ذلك عملاً آلياً يكفى أن يرى السائق النور الأحمر فيقف ، ومع ذلك قد ينسى ، وهذا منشأ حوادث السيارات .

فما علة هذا النسيان ؟

لا ريب أن الذي يتعلم قيادة السيارات يخطئ في البداية ، وكلما طال به الزمن ورسخت في نفسه العادة قل خطئه . فأول شرط في عدم النسيان كثرة التكرار ورسوخ العادة . وهناك أسباب أخرى نذكرها في موضوعها .

ونسيان الأعمال الآلية محتمل ، وقد تترتب عليه نتائج خطيرة ، ولذلك يتبعى أن يأخذ المرء حذره حتى لا ينسى فيضر نفسه أو غيره . فمدرب النار أو الأسد في السيرك يمسك

بيده مسدساً خشية نسيان الوحش ما تعلمه ورجوعه إلى توحشه . وقد ينسى البحارج مشرطاً أو مقاصاً في بطن البحريج بعد إجراء العملية ، ولذلك يعدون المشارط قبل العملية وبعدها توقياً للنسيان .

وهناك مبدأ آخر خلاف المحاولة والغلط والتعلم الشرطي هو التعلم عن طريق « المحاكاة » ، سواء عند الحيوان أو عند الإنسان . ونحن نتعلم كثيراً من ألوان السلوك الاجتماعي عن هذا الطريق ، نكتسبها من الأب والأم والأهل في الأسرة ، ومن المجتمع الذي نعيش فيه ، كطريقة الأكل والملابس والمشي والنطق والصلة في المسجد أو الكنيسة ، وآداب السلوك المختلفة وغير ذلك .

غير أننا حين نرسل الطفل إلى المدرسة نطلب منه تعلم اللغة والأدب والحساب والجبر والهندسة والطبيعة والكيمياء وعلوم الأحياء ، ولا ننتظر منه أن يتعلم بطريق المحاولة والخطأ أو الشرط أو التقليد ، بل لا بد أن « يحفظ » هذه العلوم ومبادرتها عن ظهر قلب ، لأنها أساس لا غنى عنه في كسب العلوم بعد ذلك ، مثل القرآن الكريم وهو أساس الدين واللغة والعربية ، أو على الأقل بعض أجزائه ، ومثل المحفوظات في اللغة نثراً أو شعراً يتأنب بها المرء ويتفصح لسانه ويعلو

بيانه ، ومثل جدول الضرب في الحساب ، ومنطق النظريات الهندسية وبعض القوانين في الميكانيكا والطبيعة والكيمياء وما إلى ذلك .

هذه المحفوظات جمِيعاً تسمى «لفظية» على خلاف الأعمال العادلة التي نتدرُّب عليها ونمهُر في أدائها . والسبيل إلى تعلُّمها وحفظها هو تكرارها وتسميعها عدَّة مرات حتى تثبت في الذهن وقد أجرى العلماء على هذا الضرب من التعلم اللفظي عدَّة تجارب وخرجوا أيضاً بخط للتعلم ، وبينوا أثر مرات التكرار ، وفائدة التسميع ، وفضل التكرار الموزع على عدَّة أيام .

وقد روى عن قوم وهبوا ذاكرة قوية تستطيع حفظ ما يلقى عليهم أو ما ينظرون فيه بعد مرة واحدة . وهذا نوع من الشذوذ لا ينطبق على أغلبية الناس .

روى أنه كان المتبنى يجلس في شبابه إلى ورَاق فوجد عنده كتاباً من كتب الأصمعي يتكون من نحو ثلاثين ورقة ، فأخذ ينظر فيه طويلاً . فقال له الوراق : يا هذا أريد أن أبيعه ، وقد قطعتني من ذلك ، فإن كنت تريده حفظه في هذه المدة القصيرة بعيد . فقال له المتبنى : إن كنت حفظه فالى عليك ؟ قال : أهب لك الكتاب . ثم أخذ الوراق الكتاب ، وجعل أبو الطيب يتلوه عليه إلى آخره ، ثم أخذه وجعله في كمه

وقام . فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن . فقال : ما إلى ذلك سبيل ، قد وهبتَه لي ؛ فتركه عليه .

ويروى عن أحد الخلفاء أنه كان على استعداد أن يدفع وزن القصيدة ذهباً إذا كانت جديدة . وكان عنده ثلاثة جواري الأولى تحفظ القصيدة بعد سماعها مرة واحدة ، والثانية بعد مرتين ، والثالثة بعد ثلاث مرات ، فإذا تقدم شاعر إلى بلاط الخليفة ، جعل الجواري خلف الستر ، وطلب منها إنشادها ، فتسمعها الأولى ، فيقول الخليفة هذه قصيدة معروفة وعندى جارية ترويها ، فترويها الجارية الأولى ، ثم الثانية ، ثم الثالثة . فيخرج الشاعر بغير جائزة . وعرف الشعراء الحيلة ، فتقدم شاعر بقصيدة معقدة يصعب حفظها مطلعها « صوت صفير البلبل ». فعجز الجواري عن تسميعها ويستفاد من هذه القصة أن حفظ الأشياء ذات المعنى أيسر مما لا معنى له . وإنما يسهل حفظ ما له معنى لأنك تستطيع « ربطة » بشيء آخر ، وأن تصله بجملة ما تعلمته من قبل وأدركت معناه .

ويلجأ العلماء في تجارب الحفظ إلى اصطناع مقاطع لا معنى لها وذلك لقياس المقدرة الصرفية على الحفظ . وفي بعض الأحيان يجرون التجارب على حفظ أرقام ، لأن

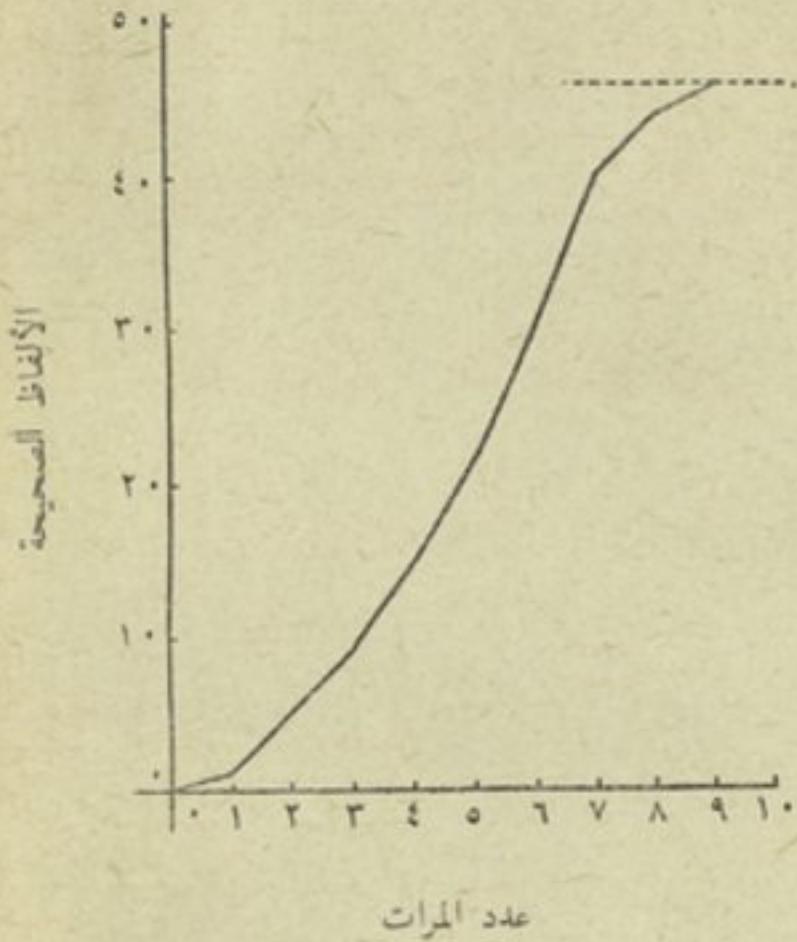
الأرقام لا معنى لها . وكذلك الحال في حفظ الرموز الجبرية والاصطلاحات . لا ريب أن حفظ هذه الأشياء أبطأ ولكن الذهن البشري يصل مع ذلك إلى حفظها ، مع التكرار ، وبقانون التلازم أحد قوانين الترابط الثلاثة ، وهي التلازم والتشابه والتضاد .

والتلازم ضروري في الحفظ ، وهو عبارة عن تجاور الألفاظ . ومعظم الأطفال يحفظون عن ذلك الطريق ، وتسمى الذاكرة حينئذ « صماء » أي ذاكرة لفظية بغير معنى . ولذلك يلاحظ أن الذين يحفظون بهذه الطريقة يكررون ما حفظوه كالبيغاء ، وإذا توقف أحدهم أو نسي ، يمكن أن تذكر له أول كلمة في بيت الشعر فيكرر البيت .

وإليك نتيجة إحدى التجارب التي أجرتها الأستاذ جوييه Guillet على شخص إنجليزي يتعلم ألفاظاً يابانية لا معنى لها بالنسبة له ، لبيان أثر مرات التكرار في تقدم التعلم .

عدد المرات	٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١
الألفاظ الصحيحة	٤٦ ٤٤ ٤٠ ٣٠ ٢٢ ١٥ ٩ ٥ ١

وسوف نتحدث عن « خط التعلم » إطلاقاً سواء أكان خاصاً بالأعمال الآلية أم المحفوظات اللفظية . وقد درس العلماء



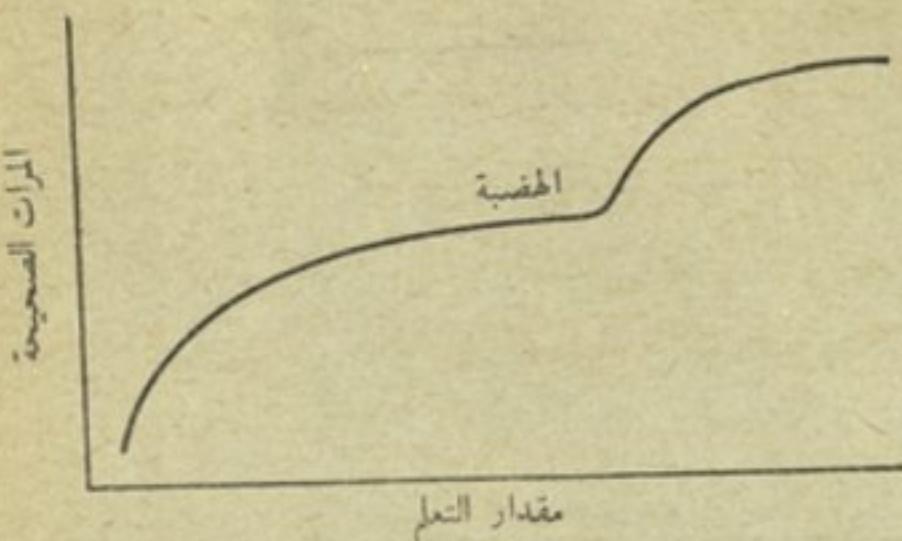
هذا الخط ، وتتبعوا أشخاصاً سنوات عدة ، وأجروا عليهم اختبارات كثيرة بين حين وآخر لمعرفة أثر التعلم .

إذا تأملت في الرسم البياني رأيت خطأً أفقياً ، وآخر رأسياً ، وجرت العادة أن يكون الخط الأفقي خاصاً بمقدار التعلم ، والرأسى يعتمد على الأول ويبين إما مقدار الغلط ، أو الزمن المستنفد ، وما إلى ذلك .

ولا يجري خط التعلم في استقامة ، بل يعلو ويحيط غير منتظم ، لأن قدرة المرء تتذبذب من لحظة إلى أخرى ومن يوم إلى يوم ، وهذا يرجع إلى الحالة الجسمية التي تتأثر بالنوم والخذم وغير ذلك . يضاف إلى ذلك أن المتعلم لا يستمر إلى غير نهاية بل يتوقف بين حين وآخر ، وقد تطول فترات التوقف أياماً أو شهوراً .

وإذا طال زمن التعلم سنوات أشار خط التعلم إلى ما يسمى بالخضاب . و « هضبة التعلم » تدل على الثبات عند حد معين بلغه الشخص ، ويستمر واقفاً عنده . مثال ذلك الذي يتعلم البلياردو فيصل بعد مدة إلى مستوى معين من الإصابات الصحيحة في الساعة ، وليكن أربعين ، ثم يحاول بعد عام أن يعدل من فنه فيرتفع إلى ستين ، وهكذا .  
وهنالك عوامل كثيرة تعين على سرعة التعلم .

منها قوة الانتباه ، أو التذكر بالقصد والإرادة . فقد ثبت من بعض التجارب في علم النفس ، ولم يكن الغرض فيها قياس الذاكرة ، أن المجرب عليهم لم يتذكروا من اللوحة التي عرضت عليهم إلا القليل جداً . ولذلك يجب البحث في شهادة الشهود في المحكمة ، إذ قد تقع حادثة أمام عدد من الناس ، فيطلبون للشهادة ، فينسى معظمهم تفاصيل ما دار بين الخصوم



من حديث ومشااجرة وما إلى ذلك ، لأن كثيراً منهم لا يلقون إلى أصحاب الحادثة بالا ، ولا يحسن التذكرة إلا من انتبه إليهم بوجه خاص .

يروى في هذا الباب أن شاهداً أدى بشهادته أمام محكمة الجنائيات في جريمة قتل ، وأجاب عن أسئلة المحكمة وبخاصة ملابس المتهم ولو أنها عندما أطلق النار على المجنى عليه . وناقشه الحامى ، فأدار له ظهره ، وسأله ما لون الكرافتة التي يلبسها ؟ وأنخطأ المتهم في معرفة اللون ، فطلب الحامى استبعاد شهادته ، إذ كيف يطمئن المرء إلى شهادته عن المتهم وهو لا يذكر ما يراه الآن . غير أن مرافعة الحامى تقوم على مغالطة نفسانية ، لأن الشاهد كان متبيهاً إلى المتهم فلا حظ ملابسه وتذكرةها ؛

ولم تكن هنالك حاجة إلى ملاحظة الحماي والانتباه إلى مظاهره . ويسمى العلماء هذا الضرب من الذاكرة ، بالذاكرة العرضية Incidental memory ، وأثبتوا أن مقدار ما تتحفظ به أقل كثيراً من الذاكرة الإرادية التي تكون عن قصد . ويعزى إلى هذا العامل أيضاً ضعف ذاكرة الأطفال لأن قدرتهم على الانتباه أقل من قدرة الكبار .

ومن أقوى العوامل على سرعة الحفظ وقوّة التعلم وثباته «الاهتمام» Interest . وقد رأيت قوماً يشكون من ضعف الذاكرة ، وبخاصة الطلبة ، على الرغم من انقطاعهم للاستذكار مع كثرة التكرار . والعلة في ذلك أنهم لا يشعرون باهتمام إلى ما يحاولون حفظه . بل إن هذا النسيان دليل على انعدام الميل .

وقد درج الآباء في مصر على أن يوجهوا أبناءهم في الدراسة توجيهاً خاطئاً لا يقوم على ميل الطفل ، فالآب يريد من ابنه أن يكون طبيباً ، أو مهندساً مثل ابن فلان ، وقد تكون نزعة الطفل إلى الدراسات الأدبية وإلى معرفة اللغات أو إلى الشعر .

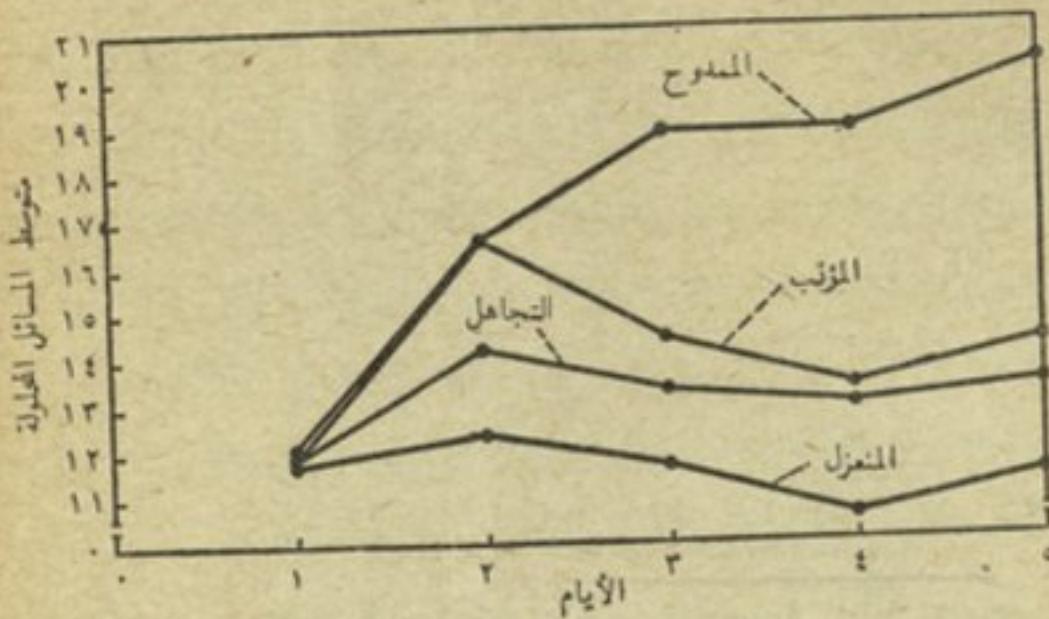
ومن الاهتمام ما هو طبيعي ، وهو منه ما هو غير طبيعي ، فإذا لم تجد في نفسك الاهتمام الطبيعي نحو شيء من الأشياء تريده أن تتعلمها ، فعليك أن «تخلق» هذا الاهتمام فتضمن بذلك سرعة الحفظ وبطء النسيان .

ولالانفعالات أثر في الحفظ وتشبيهه ونسيانه أو عدم نسيانه فالانفعالات السارة التي تبعث البهجة وتشيع الفرح تساعده على سرعة الحفظ ، على حين أن الانفعالات المؤلمة التي تؤدي إلى الضيق والتبرم تمنع الحفظ . ويلاحظ أن الانفعال إذا كان شديداً التي ضوءاً على ما يحفظ فلا ينسى . ولكن الخوف إذا بلغ حد الرعب أحدث ما يشبه التوقف والشلل فتمحى الأشياء التي كانت مصدر الخوف من صفحة الذهن . ولا يساعد الضرب على التعلم على عكس ما يتصور كثير من الناس . لأن الضرب يؤلم حين وقوعه ويكون مصدر خوف للطفل قبل توقيعه ، وإذا كان الضرب شديداً لا يتعلم الطفل شيئاً ، وإذا تعلم لم يثبت مما يتعلم شيء في مستقبل حياته . ويعالج التعلم بالعقاب والثواب ، وقد اتضح من التجارب النفسانية أن التعلم بطريق الثواب أشد ثباتاً من العقاب على الأخطاء . مهما يكن من شيء فالعقاب لا بد منه لأنه شيء طبيعي ، كما يمسك الطفل النار فتحرق يده فيتعلم الحذر منها والابتعاد عنها ، ولا ينسى لسعتها .

ويتعلم الناس بالمدح والذم ، أما الثناء فهو من أعظم البواعث على سرعة الحفظ ، وأنت لا تنسى الشخص الذي يشي عليك ، وتعلق بالأمور التي تجلب لك المدح . وقد أجري

بعض العلماء تجربة على ١٠٦ من التلميذات لبيان أثر المدح والذم في الحث على العمل العقلي ، فأعطاهن عدداً من المسائل الحسابية ليرى كم تحل كل تلميذة في ربع ساعة . وراقبهن خلال خمسة أيام ، في كل يوم مجموعة جديدة من المسائل . وقسم التلميذات أربع مجموعات الأولى يثنى على عملها سواء أحسن أم لم يحسن العمل ، والثانية تؤنب علانية أمام الفصل على ما ارتكبت كل واحدة من خطأ ، على حين تمتدح المجموعة الأولى ويثنى عليها الثناء الجميل . ومجموعة ثالثة تركت وشأنها في تجاهل ، لم تؤنب أى تلميذة منها أو يثنى عليها ، ولكنهن كن يشهدن المدح والذم للأخريات . أما المجموعة الرابعة فوضعت في فصل على حديتها ، ولم يتمتدح عملها أو يذم ، ولم تشهد ما يفعله الأخريات . وكانت النتيجة بحسب مقدار العمل والتقدم فيه على هذا الترتيب: الأولى الممدودة ، والثانية المؤنبة ، والثالثة المتتجاهلة ، والرابعة المنعزلة ، كما يتضح من الرسم البياني .

وللاستعداد الفسيولوجي مدخل عظيم في المعاونة على الحفظ أو إعاقةه ، ولذلك تختلف ساعات النهار وأوقات الليل اختلافاً كبيراً باختلاف هذه الاستعدادات . غير أن نتائج المشاهدات دلت على أن الاختلاف فردي بحت لا يخضع لقانون عام .



أعرف قوماً يطيب لهم الحفظ عند الفجر ، وآخرين في أول الليل وهكذا . ويختلف الأمر باختلاف الحالة الصحية أيضاً وبخاصة سوء الهضم الذي يؤدي إلى سوء المزاج عموماً .

وقد أجرى العلماء تجارب عده على الحفظ اللغوي ، كالألفاظ ، والنثر ، والشعر ، وأثبتوا أن ما يحفظ عن طريق القراءة الصامتة والعالية ، أي عن طريق البصر والسمع أفضل من الصامت فقط أو المسنوع فقط . ويجد بعض الأفراد عسراً في فهم الأشياء إذا قرءوا بصوت عال ، ويفضلون القراءة الصامتة . وإذا كتب الإنسان ما يريد حفظه كان ذلك أدعى إلى الثبات .

وقراءة المحفوظات موقعة منغومة مما يساعد على الحفظ ، ولذلك كان حفظ الشعر لأنه موزون أيسر من حفظ النثر ، وحفظ القصائد التي تنشد وتغنى أشد يسراً . وهذا السبب نظم القدماء العلوم في أراجيز مثل ألفية ابن مالك في النحو ، وأرجوزة ابن سينا في الطب . وإذا تأملت طفلاً في الخامسة تجده يردد ما يسمع في البيت أو المدرسة منغوماً .

وهناك طرق تساعده على الاقتصاد في الزمن عند الحفظ ، وهي الطريقة الكلية ، والتكرار الموزع على فترات طويلة ، والتسبيح .

فالطريقة الكلية أن تقرأ القصيدة بأكملها لا بيتاً بيتاً أو مجموعات صغيرة من عدة أبيات ، لأن المعنى ينساب في الكل ويربط جميع الأجزاء . ولذلك يلاحظ أن الطالب الذي يحفظ متبعاً الطريقة الجزئية يقف عند آخر كل جزء ويحتاج إلى من يذكره بأول الكلمة في الجزء التالي . ويحسن بالطلبة الذين يستذكرون دروسهم أن يقرأوا الكتاب كله دفعه واحدة ، ثم يحفظون الفصول فصلاً فصلاً ، لا صفحة صفحة .

وإذا احتاج الأمر إلى تكرار ما تحفظ عدة مرات ، فالأفضل أن توزع هذه المرات على فترات طويلة ، فالأحدى أن تقرأ القصيدة التي تريدها مرات كل يوم لمدة سبعة أيام ،

من أن تقرأها سبع مرات في ليلة واحدة . ومن الطلبة من ينقطع طول العام عن الدرس والحفظ اعتماداً على الاستذكار قبل الامتحان مباشرة فيحبس نفسه شهراً في البيت يعيد فيه دروسه ، فإذا جاء يوم الامتحان وجد أنه قد نسي . والعلة في ذلك أن الفرقة التي قضاها في الحفظ قليلة .

وفضيلة التسميع على مجرد القراءة ترجع إلى الاعتماد على الذاكرة ، وإرادة الحفظ ، هذا إلى معرفة مقدار ما حفظه من يسمع فيحيثه ذلك على زيادة الحفظ ، إلى جانب أن مرة التسميع تعد من مرات التكرار . فإذا أتبع المرء الطرق القوية في الحفظ كان ذلك أدعى إلى الثبات وأبعد عن النسيان .

## خط النسيان

رأيت أن خط التعلم يسير صاعداً ، وسوف نبين لك  
أن خط النسيان على العكس يتوجه هابطاً .

وهذا الخط البياني الذي نحدثك عنه يتعلق بالنسيان الطبيعي ، أما النسيان الشاذ ، أو أمراض الذاكرة ، فهذا ما نرجى الحديث عنه إلى فصل آخر .

وكما أن التعلم أنواع فكذلك النسيان ، فقد فرقنا بين ذاكرة العادة كالسباحة وركوب الدراجة ولعب البلياردو وقيادة السيارة والضرب على الآلة الكاتبة ، وبين ذاكرة المعرفة أو الذاكرة اللفظية مثل حفظ سور من القرآن الكريم أو قصائد من الشعر أو جدول الضرب في الحساب وغير ذلك ؛ وليس نسيان السباحة مثل نسيان سورة قرآنية . ولو انقطعت عن ركوب الدراجة عشرين عاماً وجربت ركوبها بعد ذلك لوجدت أنك لم تنس تلك الخبرة التي اكتسبتها أيام الصبا والشباب ، ولكنك إذا عدت عشرين عاماً إلى الوراء تسترجع قصيدة لامرئ القيس كنت تحفظها أيام الطلب لم يجر على لسانك من أبياتها إلا البيت أو البيان ، أو شطارة من بيت .

هل يحرى النسيان طبقاً لقانون؟ وهل يكون النسيان كاملاً؟  
وما هي عوامل النسيان؟

وقد اختلف العلماء في أمر النسيان ، فذهب بعضهم إلى أن كل ما يدخل في خبرة المرء ويتأثر به لا يزول أبداً ولا يمحى ، وذهب بعضهم الآخر إلى أن الإنسان لا يمكن أن يحفظ بكل شيء ، وقال بعضهم الثالث إن الأمور التي سبق حفظها حفظاً جيداً وثبتت مع التكرار هي التي لا تنسى ويمكن استرجاعها في ظروف خاصة ، مثل حالات الذهاب ، أو التقويم المغناطيسي . وقد روى عن شخص تكلم بلغة أجنبية كان قد تعلمها وهو في سن الثالثة ونسيها تماماً . ويقول «تين» في كتابه «الذكاء» ما فحواه : لا يمكن معرفة حدود هذه الذكريات القديمة ، ولا بد أن نسلم بأن أي إحساس مهما يكن عابراً تافها باهتاً له القدرة على الظهور دون أن يفقد منه شيء .

روى أبراكمي في كتابه عن «القوة العقلية» القصة التالية قال : أصيّبت سيدة بمرض مزمن فنقلت من لندن إلى الريف ، وأحضروا إليها ذات يوم طفلتها ولم تتمكن تتكلّم بعد ، حيث مكثت معها فترة قليلة ثم أعادوها إلى المدينة . وتوفيت السيدة بعد أيام ، وكبرت طفلتها دون أن تذكر شيئاً عن

أمهما . وأتيحت لها فرصة زيارة الحجرة التي توفيت أمها فيها . فلما دخلت الغرفة ارتعشت مع أنها لا تعرفها . فلما سئلت عن علة انفعاها أجبت : إنني أحس إحساساً واضحاً كأنني جئت من قبل إلى هذه الحجرة ، وكان في هذا الركن امرأة راقدة ، يبدو أنها كانت مريضه جداً ، وانعطفت نحوى وكانت تبكي » .

وшибيه بذلك ما رواه كاربنتر في كتابه « الفسيولوجيا العقلية » قال : ذهب رجل له مزاج فنان مع بعض أصدقائه في رحلة على مقربة من قصر الكونت دي سوسكس الذي لا يذكر أنه زاره من قبل . فلما اقترب من الباب الكبير أحس إحساساً شديداً بأنه سبقت له رؤيته ، بل تذكر كذلك قوماً يركبون حيراً وآخرين يقفون إلى جوارها . فسأل أمه عن حقيقة الحال ، فأخبرته أنه وهو طفل يبلغ ستة عشر شهراً ذهب إلى ذلك المكان على ظهر حمار ، وأنه بقي بالباب مع الحمير والخدم على حين دخل الآخرون القصر يتناولون الطعام .

وإذا أضفنا إلى ذلك أن بعض علماء النفس الذين يدينون بمذهب اللاشعور وأثره في الحياة النفسية يزعمون أن أن الذكريات التي يخيل إليها أنها قد انفتحت في الظاهر

ولا يمكن استرجاعها ، لا تزال موجودة في الالاشعور تعمل وتأثير وتحرك صاحبها . وهؤلاء العلماء يفترضون أن كل ما يكسب المرء يظل باقياً في حالة من الكمون .

ومن ناحية أخرى يضطر بعض العلماء إلى القول بوجود النسيان وضرورته . فهذا تين Taine الذي افترض من قبل الذكر الكامل يقول في مكان آخر : إننا إذا وازنا بين الإحساسات المختلفة والصور المتباينة والمعانى المتعددة لوجدنا أن نزوعها إلى الذكر ليس بمنزلة واحدة ، إذ ينبعحى كثير منها ولا تظهر إلى آخر الحياة . مثال ذلك أنى ذهبت أول أمس لشراء بعض الحاجيات من السوق في باريس ورأيت في الطريق مئات من الوجوه الجديدة لا أذكر أى وجه منها .

ويقول دلبييف Delbœuf في مقالة عن النوم والأحلام في المجلة الفلسفية . « هناك بعض الحق في الرأى القائل بأن الذاكرة لا تصاب بالتعب فحسب بل تمحي أيضاً . وإذا لم تطرد إحدى الذكريات صاحبها ، فهى على الأقل تعوقها عن الظهور ، بحيث يمكن القول بأن المخ يبلغ حدّاً من التشبع عند الفرد .

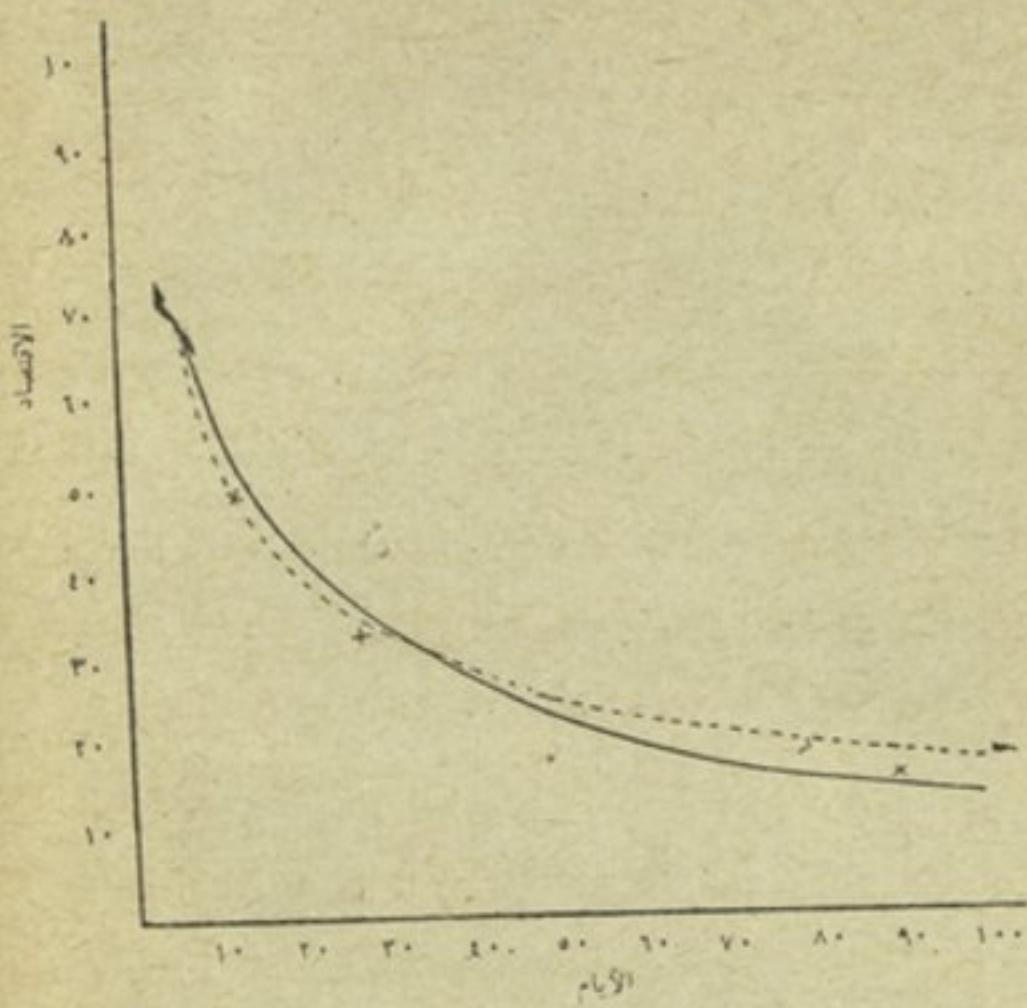
هذه الفكرة تعنى « التشبع » هي التي عول عليها

«ريبو» في بيان أهمية النسيان ، إذ بفضله يتيسر الاحتفاظ بما يكتسبه المرء فترة طويلة من الزمن . ومن أجل ذلك رأى بعض العلماء أن النسيان وظيفة حيوية إيجابية ، وأنه نشاط ذهني نافع في حذف ما لا يحتاجه العقل وما لا أهميته له . وإذا أبعدنا هذه النظريات كلها جانباً رأينا أن النسيان حقيقة لا ريب فيها .

وقد اتجه بعض العلماء في بحثهم هذا الموضوع اتجاهًا تجريبياً ، وخرجوا بقانون النسيان الذي صاغوه صياغة رياضية خاصة ، ورسموه في خط بياني سموه خط النسيان . والفضل في هذه المباحث للعالم النفسي إينجهاوسن ، وتبعه في ذلك كثيرون .

واعلم أن خط النسيان يتذبذب كما هي الحال في خط التعليم . الواقع أننا لا ينبغي الفصل بين الحفظ والنسيان ، إذ كلاهما مكمل للآخر ، أو قل إن التعليم صراع بين الحفظ الذي يتميز بالممارسة والنسيان الذي يزيد بالترك . ولذلك قيل في الأمثال «آفة النسيان الترك» . وتتضح هذه الحقيقة من الرسم البياني الآتي .

وتُجرى التجارب على النسيان بأن يحفظ عدد من الطلبة شيئاً معيناً مثل بعض الألفاظ ، ثم يختبرون بعد ذلك ،



البعض بعد ساعة ، والبعض الآخر بعد يوم ، والبعض الثالث بعد يومين وهكذا . وقد دلت التجارب على أن النسيان يكون سريعاً جداً بعد الحفظ مباشرة . وأول من أجرى هذه التجارب هو هرمان إينجهاوس الذي جرب على نفسه

أن يحفظ مقاطع لا معنى لها ، ثم اختبر نفسه في اليوم التالي فوجد أنه لم يسترجع إلا ثلثاً تقريرياً ، واستمر النسيان بعد ذلك ولكن ببطء .

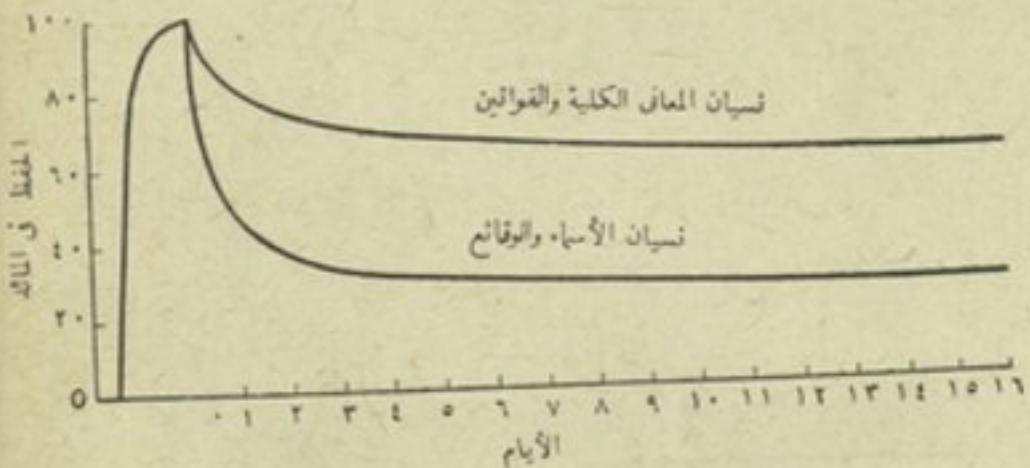
على أن قيمة تجارب إينجهاوس ترجع إثبات هذه الحقيقة وهي أن ما سبق اكتسابه ونسى يمكن أن يحيى باكتساب جديد مع الاقتصاد في الزمن . وهذا دليل على بقاء أثر ما حفظ . مثال ذلك أنه إذا لزم تكرار مقاطع لا معنى لها ٢٠ مرة لحفظها فإنه يكفي إذا نسيت أن تكرر ٥ مرات ، أى أن نسبة الاقتصاد هي ١٥ إلى ٢٠ أى ٧٥ % ، وتحتاج بعد ذلك إلى اقتصاد ١٠ مرات أى ٥٠ % وهكذا .

ويتبين بمقتضى هذه التجارب أن النسيان أمر طبيعي وتلقائي ومنتظم ، ولو أن بعض العلماء من أصحاب التحليل النفسي ، وعلى رأسهم فرويد ، يرون غير هذا الرأي فيذهبون إلى أن النسيان راجع إلى « الكبت » وإلى الرغبة اللاشعورية في هذا النسيان .

وقد حسب كثير من العلماء في تجاربهم على الاقتصاد في الزمن واتجاه خط النسيان وطلعوا بنتائج متقاربة . وهذه إحدى التجارب :

نسبة الاقتصاد	الفترة بالساعة
% ٦٨,٩	٢٤ ساعة (١ يوم)
% ٦٠,٩	٤٨ « (٢ يومان)
% ٤٩,٣	١٤٤ « (٦ أيام)
% ٤١,	٣٤٦ « (١٤ يوماً)
% ٣٧,٨	٥٠٤ « (٢١ يوماً)

وهذا هو الخط البياني للنسبيان.



ويصاغ هذا القانون في معادلة جبرية ، فإذا رمزنا للزمن بحرف  $m$  ، وبالمادة التي تحفظ بحرف  $s$  ، وبمقدار الاقتصاد بحرف  $v$  كانت المعادلة كما يأقى :

$$\varphi = \frac{e}{\log_{10} M}$$

هذا القانون عام ، ولكن إذا نظرنا إلى الأفراد نجد أنهم يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً ، وكذلك إذا نظرنا إلى طبيعة الأشياء التي حفظت ثم تنسى فيها بعد .

فالأعمال الآلية أعظم ثباتاً كما توضح التجارب الآتية :  
تعلم شخص الآلة الكاتبة حتى بلغ من المهارة أن يكتب ١١٠٠ كلمة في الساعة بعد تدريب استمر ٤٨ يوماً .  
ثم انقطع عن الكتابة سنتين ، فاحتاج إلى عشرة أيام ليبلغ المستوى السابق ، أى باقتصاد قدره ٧٩ %.

وروى سويفت Swift من علماء النفس أنه قضى ٤٢ يوماً في تعلم قذف الكرة ، واحتاج إلى ١١ يوماً بعد ست سنوات ليسترجع ما سبق أن بلغه ، أى باقتصاد قدره ٧٤ %.

أما الذاكرة اللفظية فلها شأن آخر ، لأن الكلمات منها حروف ، ومنها مقاطع لا معنى لها ، ومنها أسماء أعلام ، ومنها أسماء أشياء ، ومنها أسماء كلية عامة ، ومنها صفات ، ومنها ظروف وحروف جر تصل الكلام بعضه ببعضه الآخر ، ومنها أفعال ، وهذه كلها تتبع قانوناً في نسيانها وضعفه « ريبو »

في كتابه «أمراض الذاكرة»، أو أنه وضع قانونين الأول خاص بتعلم اللغة إطلاقاً لغة الكلام العقلي، ولغة الانفعالات، ولغة الإشارة ، والثاني خاص بلغة الكلام العقلي .

وطبقاً للقانون الأول تنسى اللغة العقلية أولاً ، ثم اللغة الانفعالية كعبارات التعجب ثانياً ، ثم لغة الإشارة ثالثاً .

أما فيما يختص باللغة العقلية فإنها تخضع في نسيانها لهذا القانون ، وهو الاتجاه من الخاص إلى العام ، كما تعلم الطفل فهو يبدأ بالخاص وينتهي بالعام ، ويسير النسيان بالعكس ، فيبدأ بأسماء الأشخاص أو الأعلام ، ثم بأسماء المحسوسات ، ثم بالصفات ثم بالأفعال . وتستطيع أن تفسر بهذا القانون العلة في نسيان أسماء الأصدقاء مع الاحتفاظ بصورهم ، فكثيراً ما تلتقي بشخص تذكره جيداً وتذكر عمله ، ولكنك تنسى اسمه . أما فرويد فله في نسيان الأسماء تعليل آخر .

ويعتمد برجسون على هذا القانون في البرهنة على أن الذاكرة لا تنطبع في المخ ، لأن الألفاظ إذا كانت قد حفرت في المخ فلماذا تختفي أسماء الأعلام دون الأفعال . أما الأفعال فإنها تدل على العمل ، وأن العمل يمكن محاكاته فيكتسب عن هذا الطريق ، وبذلك تدخل الأفعال في

الأعمال الآية ، وأن الصفات تكون عملية عن طريق الأفعال التي تحتويها ، أما الأسماء فتحتاج إلى وساطة الصفات ثم الأفعال ، فكلما ابتعدنا عن الأفعال إلى الأسماء ابتعدنا عن الأعمال التي يمكن تقليلها بواسطة الجسم . فهذه هي خلاصة تفسير برجسون لنسيان الأسماء والأفعال .

جملة القول إذا كانت الحياة العقلية تشمل المحسوسات والصور الذهنية والمحيرات التي تدل على المحسوسات كالرموز والأرقام والأسماء الشخصية والمعنى الكلية والقوانين العامة ، مثل قانون العرض والطلب في الاقتصاد وما إلى ذلك فإنها آخر ما تنسى ، ويوضح هذا الخط البياني نسبة النسيان في الأسماء والواقع وفي المعنى الكلية والقوانين العامة .

ومن جملة القوانين التي أوضحتها تجارب علم النفس الخاصة بالتذكرة والنسيان ، أن ما يحفظ لأول مرة يغيب في في هوة من النسيان تمرد من يوم إلى ثلاثة أيام باختلاف الأفراد ، ثم تذكر بعد ذلك . لنفرض أنك حفظت قصيدة جديدة من الشعر لأول مرة ، ثم أردت استرجاعها بعد يومين فإنك لا تجد إلى تذكرها سبيلا ، وفي اليوم الثالث تذكرها . وتسمى هذه المدة هوة أو فرة النسيان . ولذلك كان من

الخطأ الشديد أن يستذكر الطالب درسه الذي سوف يمتحن فيه ليلة الامتحان . ويفيدو أن العقل يعمل الاشعررياً فيربط ما تحصله بجملة ما يحتويه الذهن ويحتاج إلى هذه الفترة حتى يستقر ما يكتسبه .

وقد أجمع المحدثون على أن السبب الأول في النسيان هو اختلاط الحفظ ، أو تدخل شيء جديد فيها تحفظه أو تدركه . فيجعل أحدهما الآخر . فلو أن تاجراً تقدم إليه شخص اسمه حسن عبد المجيد ، وفي الوقت نفسه آخر اسمه حسين كامل ، وثالث اسمه محمود عبد الواحد ، ثم أراد بعد شهر أن يذكر اسم الأول لنسيه ، أو على الأقل إذا كانت ذاكرته جيدة لقال حسين عبد المجيد بدلاً من حسن ، أو حسين عبد الواحد ، فجعل يخلط بينهم . والأغلب أن التداخل يؤدي إلى التوقف والتعطيل . ويلاحظ أن الطالب في الفصل المدرسي إذا جلس يتحدث مع زميله لم يستطع أن يتذكر درس الأستاذ ، ولذلك ينبغي اهدوء التام ساعة إلقاء الدرس . وإذا استذكر الطالب دروسه في المنزل بين ضجيج أهل الدار أو أهل الحي وجد صعوبة في التذكر فيما بعد . وكيف يتمنى للطالب الحفظ على حين يعلو صوت المذيع طول الليل وخاصة في الأحياء الوطنية ، وهي

أحياء شديدة الازدحام بالسكان ولا يخلو الأمر من وفاة أو زفاف فتقام ليالي المأتم أو الزفاف في صجة شديدة ، حتى لقد كثرت الشكوى وأراد بعض أولى الأمر منع استعمال المذيع بسلطنة القانون . وأفضل من ذلك أن يقطن المرء في الضواحي حيث يضمن الحدوء فينصرف إلى عمله العقل دون أن يعوقه عائق .

وليس من الضروري أن يكون العائق ساعة الحفظ ، بل قد يكون بعد الحفظ ، وقد يكون مستمراً ، في صورة المموم التي تنتاب المرء . وانظر إلى شخص قد توفي ابنه ، أو هو طريح الفراش لا يجد له علاجاً ، أو إلى تاجر قد تراكمت عليه الديون ، تجده شارد الذهن ينسى كل شيء حتى الأفعال الآلية فإذا به يغفل عن طعامه . فالمموم من المعوقات التي تتدخل في المحفوظات الذهنية فتعطلها .

ويسمى هذا التدخل في الحفظ بالاصطلاح العلمي

### «المانع المعاكس» Retroactive inhibition

إذا شاء أحادنا أن يذكر شيئاً ولا ينساه فعليه أن يحفظه وحده . وأن ينقطع له ، ولا يسمح شيء آخر أن يعوق ما يحفظه . أما العامل الثاني في الذكر والنسيان فهو الراحة الجسمية أو التعب والإجهاد . وقد أثبتت التجارب أن التذكر يكون

أفضل بعد «النوم». وندلك ذصحوا بأن نام المرء بعد الحفظ حتى يثبت ما يحفظه. ويلجأ بعض الطلبة إلى السهر طول ليلة الامتحان فإذا به لا يستطيع أن يتذكر ما حفظه، مع أنه لو نام نوماً كافياً ما نسي. ويبدو أن المعلومات تستقر في الذهن لأشورياً، وأن العقل يعمل في اللاشبور، بدليل أن الذى يفكر فى مسألة هندسية مثلاً يجد حلها فجأة دون أن يفكر فيها بوعى. وفي حالات الجحولان النوى Somnambulisme ينهض الشخص من فراشه ويجلس إلى مكتبه يعمل ويؤلف ثم يعود إلى فراشه ثانيةً، حتى إذا استيقظ لم يذكر مما فعله شيئاً. وليس هذا غريباً لأن بعض الناس يتكلمون وهم نائم، فإذا سئلوا بعد اليقظة أنكروا أنهم كانوا يتكلمون. واعتماداً على هذه الحقيقة، نعني وجود المعلومات في اللاشبور وصعوبة تذكرها في حالة اليقظة، يلجأ علماء النفس إلى التنويم المغناطيسى إذا أرادوا معرفة بعض الحوادث التي نسيها المريض. هذا ويعلل بعض معهـة العلماء تذكر المرء الماضي في حالة التنويم المغناطيسى بأنه يكون منقطعاً انقطاعاً تاماً إلى هذا التذكر، لا يشغلـه شيء آخر، فضلاً عن ارتباطـه. وليس من الضروري أن يلجأ العالم النفـسانـي إلى التـنويم المـغـناـطـيسـي في استـحـضـارـ الذـكريـاتـ المـاضـيـةـ،ـ إذـ يـكـنـىـ

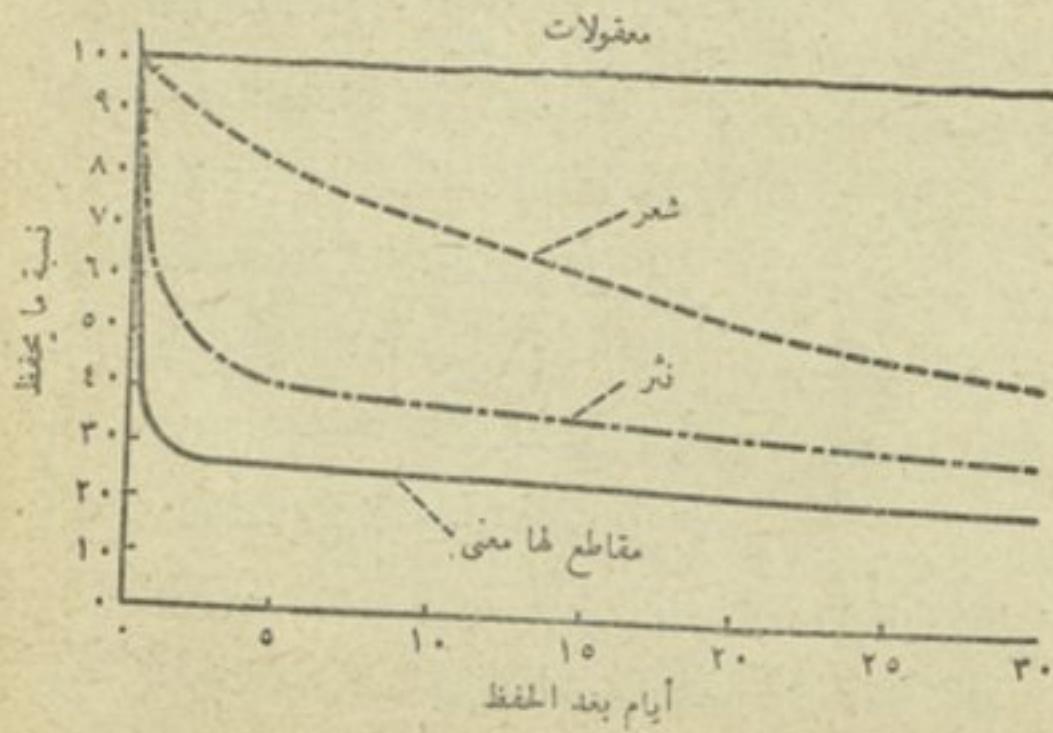
أن يجلس المريض جلسة مريحة في مكان هادئ وأن يدعه يتكلم بطريقة «الداعى الحر». وكثيراً ما يتوقف المريض لأن في قرارة نفسه أموراً لا يريد إظهارها، أو يرغب في كتبها ونسياها. وبذلك نرجع إلى القاعدة الأولى في النسيان، وهي وجود الموضع الحائل دون التذكر.

وقد فطن القدماء بالتجربة الشخصية إلى ما فطن إليه العلماء المحدثون بالتجارب العلمية، فهذا أبو تمام يوصي البحترى في صدر وصيته بالقاعدتين اللتين ذكرناهما وهما الابتعاد عن الشواغل والنوم للراحة. وهذه هي الوصية بألفاظها كما رواها البحترى قال: «كنت في حداثى أروم الشعر، وكنت أرجع فيه إلى طبعى، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذة وجوه اقتضائه حتى قصدت أبا تمام، وانقطعت فيه إليه، واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة، تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفو من الغموم. واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه وقت السحر، وذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحه وقضتها من النوم . . .»

وصية أبي تمام وصية خبير بالحفظ والرواية عليم بأسباب النسيان، وكان فيما يقال جيد الذاكرة يحفظ الشعر

إذا سمعه مرة واحدة . فقد اتصل البحترى بأبي تمام وسعي إليه في حصن فانشاده قصيدة حفظها أبو تمام لأول مرة ، ادعاهما ليكدر على البحترى خاطره أو ليعاقبه على تفحمه عليه مواطن الإنشاد ، ثم عاد فأفهمه أنه يداعبه .

ويتضح من ذلك أن حفظ الشعر أيسر من حفظ النثر ، وليس يعلو عليه إلا حفظ المعقولات التي يدركها الإنسان ب بصيرة العقل لا عن محاولة وتعثر أو تقليل ومحاكاة . وهذا هو خط النسيان الذي رسمه جلفورد Guilford أحد علماء النفس يبين فيه نسبة نسيان المعقولات والشعر والنثر والمقاطع التي لا معنى لها .



## أمراض التعرف

كفت أركب ترام المترو عائداً إلى مصر الجديدة ذات يوم ، وجلس في المعقد أمامي شخص لم أمتلك من تحيته ، لأنه فضلاً عن زمالته في المدرسة الثانوية فهو صديق ، وهو يعمل محامياً مشهوراً. ولم يرد هذا الشخص التحية بأحسن منها أو بعثتها ، ولكنه ردّها متتجاهلاً كأنه لا يعرفني . فعجبت وتأملته طويلاً، إنه هو هو هيئه وقواماً وشارباً ، فقلت في نفسي لعله شخص قريب الشبه منه ، ولكنني كلما نظرت إليه لم أجده بدأً من الجزم بأنه صديق الذي أعرفه ، وأنكرت إنكاره معرفتي ، وأردت التأكد من هذه المسألة فقلت له : ألسْتَ فلاناً؟ فأجاب كلاماً ، فقلت له : ألسْتَ محامياً؟ فأجاب إنه موظف بإحدى الوزارات .

وكميراً ما يحدث من الخطأ في التعرف حوادث غير غير محمودة ، فهناك أشخاص ترتفع بينهم الكلفة إلى حد التبسيط فإذا التقى أحدهم بصاحب احتضنه وقبله ، أو إلى حد ال�ذر فيضر به أو يشتهيه مثلاً . فانظر حرج الموقف حين يفاجأ شخصاً من يلجمه أو يزغده . وروى لي صديق

هذه النادرة العجيبة قال : كنت أسبر مع بعض أصدقائي في مقهى حتى منتصف الليل ، ولأمر ما أخرجت مفتاح منزلي فأخذه مني أحدهم ونسىت أن أستره منه ، ثم انصرفنا ، وتحسست المفتاح فلم أجده فعرفت أنه مع صاحبي الذي انصرف وكان أعزب زرت منزله مرة واحدة قبل ذلك بعام ، فرجعت مع صاحبي ناحية ذلك المتزل ، ولكننا دخلنا المتزل المجاور الذي كان يشبهه ، وصعدنا الدور الثالث ونقرنا على الباب ، فخرجت لنا خادمة صغيرة ، فقالنا لها : « هل سيديك محمد أفندي موجود؟ » فقالت : « نعم تفضلوا » فدخلنا إلى صالة صغيرة فيها مائدة عليها طعام ، ولم تكن بيننا وبين صديقنا كلفة ، ورأينا على المائدة طبقاً فأكلنا من الطعام الذي فيه ، ولا غاب صديقنا عن الحضور حثنا به وهمتنا أن ندخل عليه حجرة النوم ، وإذا بشخص آخر يخرج وزوجته تناهى به من الداخل أن يرى رأيه في هؤلاء الأصدقاء الذين يطرون بابه بعد منتصف الليل . وأصر الرجل أن يصحبنا إلى قسم البوليس للتهجم عليه .

وقد تدخل بيته فتحسس كأنك تعرف هذا البيت وتعرف حجراته وتعرف أثاثه ، وهذا هو « التذكرة العكسى » ، وينشأ في الغالب من « التشابه » بين المكان

الذى تعرفه وبين المكان الذى تراه ، وينشأ عن ذلك الشعور « بالألفة » .

والتعرف مكمل للتذكرة ولا يغدو العلماء مرحلة أساسية منه ، إذا كانت مراحل الذاكرة خمس ، الحفظ والوعي والاسترجاع ثم التعرف والتحديد . ولنضرب مثلاً يبين هذه هذه المراحل . طالب في المدارس الابتدائية يعلمه المدرس أن دمشق عاصمة سوريا ، فيحفظ الطالب هذه الحقيقة ، وتستقر في ذهنه وتظل باقية في صفحة عقله دون أن ينساها ، وهذا هو الوعي . وعند الامتحان يجيب عن السؤال الآتي : ما عاصمة سوريا ؟ إنها دمشق ، وهذا هو الاسترجاع . أما إذا جاء السؤال على النحو الآتي : هل عاصمة سوريا بغداد أو دمشق أو بيروت ، فأجاب إنها دمشق ، فهذا تعرف ، لأنها لا يسترجع اللفظ بل يتعرف عليه . أما التحديد فهو وضع ما تتذكرة في المكان أو الزمان ، والتحديد مكمل أيضاً للذاكرة . وقد تعقد بعض الامتحانات المدرسية على أساس التعرف لا الاسترجاع . كما بينا في السؤال السابق ، تسهيلاً للطلبة . وأساس التعرف الحفظ السابق ، لأنك تستعرض ذكرياتك وتطبقها على هذا الشيء الذي تراه أو تسمعه . فإذا حدث خطأ في التعرف كالأمثلة التي ضربناها ، فعلة

ذلك ترجع إلى أمور كثيرة ، إما من الحفظ ، وإما من عوامل أخرى سوف نذكرها . وقبل بيان هذه العوامل يجدر تمييز أنواع التعرف ، وهي ترتد إلى نوعين أساسيين ، تعرف الألفة ، وتعرف الحكم ، فالأول تعرف وجداً ، والثاني عقل .

ومن المشاهد أن الإنسان ، والحيوان كذلك ، يحس بإزاء الأشياء التي تحيطه في البيئة التي يوجد فيها بأحد شعورين إما ائتلاف وإما تقوير وغرابة . وكثيراً ما يكون هذا الشعور غامضاً لا يستبين فيه المرء أى ذكرى قديمة واضحة ، ويحدث ذلك عندما نسير في الشوارع التي ألفناها والأماكن التي تعودنا الاختلاف إليها . ومعظم الحيوانات تجد لذه في تمضية الوقت في الأماكن المألوفة لها ، ومرجع ذلك إلى شعورها « بالأمن » وابتعادها عن الخطر . الذي تريد أن تتتجنبه . والحق أن الخوف من أهم العوامل في النسيان ، كما أنه من العوامل التي تبعث على الابتعاد عن الأشياء وتجنبها . ونسيانها أحد مظاهر الابتعاد عنها . وإذا لاحظنا الطفل الصغير الذي يبلغ من العمر ثلاثة أشهر أو أربعة نجد أنه يتميز بهذا الشعور ، شعور الألفة الذي يجلب له ال الأمن والاطمئنان ، ولذلك يقبل على أمه أو أبيه أو خادمته ، ويشيخ بوجهه عن

الغرباء ويفزع منهم . وليس ذلك تعرفاً عن حكم عقل ، بل عن الصلة الآلية التي تشبه الأفعال الشرطية . ومن الألعاب التي يسر لها الأطفال كثيراً لعبة « الاختفاء » حين تخفي منه لعبته أو تخفي عنه الشخص الذي يحبه ، فيبحث عنه ويسر عند عودته ، وتتبسط له أسارير وجهه .

ومن الأمور التي تعد في باب العجائب تعرف الكلاب على أصحابها بحسنة الشم . و تستطيع الكلاب البوليسية أن تتعرف على المجرمين إذا شمت آثار الجريمة . وهناك أبحاث قانونية كثيرة في هذا الموضوع ، ولكن جمهورة المحاكم لا تأخذ بهذا الدليل ، ولا يجعله قاطعاً إذ قد يخطئ الكلب في تعرفه . وإنما يستطيع الكلب أن يتعرف لأنّه يحتفظ في ذهنه بالصورة الشمية ويطبقها على الشخص الذي يجد فيه هذه الرائحة نفسها . ولكتنا لا نملك القول بأن الكلب يميز الماضي ويعرفه ويطبق الموجود في الحاضر على المحفوظ في الماضي ، لأن هذه العملية هي تعرف الحكم الذي يختص الإنسان به .

فالشعور بالألفة شعور عام لا يغوص فيه صاحبه مع الماضي ، وهو يوازي الذاكرة الآلية ، أو ذاكرة العادة ، ويتصل أغلب الأمر بالأشياء والأماكن لا بالمعنى والألفاظ . وقد قيل إن التعرف على الأشياء هو التعامل وإياها ، وهذه

نظريّة السلوكيّين في علم النفس . فإذا نظرتَ إلى فنجان عرفتَ أنه صالح أن يشرب فيه ، وإلى قلم أن يكتب به ، وهكذا .

أما تعرّف الحكم فيحتاج إلى نظر في الماضي ، على حين يستعرض تعرّف الألّفة الماضي . فنحن في حياتنا اليومية نتعامل مع أشياء كثيرة يكفي أن ننظر إليها حتى تقبل عليها أو تدبر عنها دون الرجوع إلى الصور الذهنية الماضية عنها . روى عن مرضى يعرفون كيف يصفون الأشياء إذا ذكرت أسماؤها ولا يتعرفون عليها إذا شاهدوها . وروى عن شخص أصبح يجهل الاتجاه في شوارع بلدته التي نشأ فيها ، ومع ذلك فهو يعرف أن هذه الطرق شوارع وأن الأبنية الموجودة على جوانبها بيوت للسكنى . وأصبح لا يعرف زوجته وأولاده ، ولكنه مع ذلك يعرف أن هذه امرأة وهولاء أطفال . من أجل ذلك أنكر برجسون بعد رواية هذه الأمثلة أنها تدل على «عمى نفسي» أو على فقدان الذاكرة ، ولكنها دليل فقط على نوع من أنواع أمراض التعرّف يرجع إلى اختلال العادة الآلية . ذلك أن الإنسان يتعرّف على المدينة بأن يسير في طرقها مرة بعد أخرى ، ثم يصبح سيره في شوارعها آلياً ، ومن هنا ينشأ الشعور بالألّفة .

وانظر إلى الأحوال التي نضطر فيها إلى الحكم عند التعرف ، أى استحضار الماضي وتطبيقه على الحاضر . عندما تضبط مسروقات أو يعثر رجل البوليس على طفل ضل الطريق ، ويذهب أصحاب المسروقات أو أهل الطفل للتعرف على هذه المسروقات أو هذا الطفل ، يرجع المرء إلى الذاكرة ، وبخاصة لأن رجال البرليس لا يكتفون بمجرد التعرف ، بل يطالبون بذكر علامات مميزة .

كانت إحدى الفتيات تلعب في حديقة عامة مع إخواتها فوقيت منها ساعة يد ، وعثر عليها أحد الصبية من كانوا يلعبون في الحديقة ، ولم يكن يعرف صاحبها ، ولكنه ظن أنها تكون لإحدى هذه الفتيات ، فذهب إلى متزلج يعرض الساعة ، ولم تكن صاحبها موجودة في ذلك الوقت بل أختها الصغيرة التي تبلغ العاشرة من عمرها ، فلما سألاها عن الساعة وعرضها عليها قالت إنها ليست ساعة أختها لأن ساعتها مربعة وهذه مستديرة ، لولا أن سمعت أمها الحديث فتدخلت في الأمر وعرفت الساعة . أما السبب الذي من أجله أخطأت الأخت الصغيرة في التعرف على الساعة ، فهو أنها كانت تطمع أن يكون لها واحدة مثل أختها ، فهي تنفس عليها وتحسدها وتود ألا يكون لها ساعة حتى تحرم منها كما أنها محرومة كذلك .

فهذا نسيان يرجع إلى تخيل صورة تخالف الصورة  
القديمة .

ويعلل برجسون أمراض التعرف بأمررين : الأول نسيان  
الصور الذهنية الماضية ، والثاني انحلال الرابطة التي تربط  
بين تلك الصور وبين غيرها . الواقع أن الذكريات الماضية  
لا تكون مفردة منعزلة بل يرتبط بعضها ببعضها الآخر ، إلى  
حد أن الفكرة التي تكون عندنا عن شيء من الأشياء تم  
 شيئاً فشيئاً بعد إضافة صور عدّة عن الشيء الواحد . فأنت  
تعرف زيداً من الناس لأفك رأيته في أوضاع مختلفة وفي  
هيئات عدّة ، فهو مرة جالس وأخرى قائم ، ونارة لا يلبس  
ونارة غير لابس ، وفي حين باسم وفي حير آخر عابس ،  
ومع اختلاف هذه الهيئة كلها تعرفه وتميّزه دون غيره .  
فأنت حين تتذكرة ، أو حين تتعرف عليه ، لا تستحضر في  
ذهنك صورة ماضية عنه بالذات . وكذلك الحال حين  
تنظر إلى شجرة فتقول هذه شجرة وحين تنظر إلى قطة فتقول  
هذه قطة وليس كلباً . وليس معنى ذلك أنك تستحضر في  
ذهنك صورة قطة معينة بالذات أو صورة شجرة بالذات .  
والذي يعين الإنسان على إدراك هذه المعانى الكلية أنه  
يخلع عليها ألفاظاً تتركز فيها ، على خلاف الحيوان غير الناطق .

واللّفظة وعاء أو لباس للمعنى ، وها شخصية مستمدّة من شخصية الأشياء التي تدلّ عليها . ولكن الألفاظ أصوات ليست مادية كهذه الشّجرة أو هذه القطة أو هذا الكلب . ومع ذلك فقد ظنّ قوم أن الألفاظ المنطوقة مادية ، وأنّها تُحضر في صفحات الذهن كما تسجل الأصوات على صفحة الأسطوانة ثم تسمع بعد ذلك في البرامقون . وهذا تشبيه قديم ساد في أواخر القرن التاسع عشر ، ولكن برجسون وغيره اعترضوا عليه اعترافات كثيرة ، فقالوا : إن كانت الألفاظ مسجلة على هذا النحو فلماذا تسقط لفظة واحدة من بين العبارة المحفوظة ، ولماذا تنسى لحظة ثم تظهر لحظة أخرى .

وكمَا يتعرّف الإنسان على الأشياء المحسوسة وعلى الأماكن التي تحيطه في البيئة التي يوجد فيها ، كذلك يتعرّف على الألفاظ والمعاني التي تعرض عليه . كنت في مجلس وجاء ذكر هذه الآية على سبيل الاستشهاد « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » فقلت هذا حديث شريف ، فقال صاحبى بل إنه آية قرآنية ، وأصرّ على رأيه ، وأصررت على رأىي . فلما عدت إلى منزلِي راجعت المسألة فاتضح لي فساد تعرّفى ، ووجدت أنه آية وليس حديثاً . وأخذت أحلل نفسي كيف

وَقَعَتْ فِي هَذَا النَّسْيَانُ ، فَرَأَيْتَ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى تَخْلِيطِ فِي  
الْحُكْمِ بَيْنَ خَصَائِصِ الْأَسْلُوبِ الْقُرْآنِيِّ وَأَسْلُوبِ الْجَدِيدِ  
النَّبُوِيِّ . وَمُعْظَمُ أَخْطَاءِ التَّعْرِفِ نَاسِئَةٌ مِنَ الْخَطَأِ فِي الْحُكْمِ مَعَ  
ضَعْفِ الْحَفْظِ .

وَلَا رِيبٌ فِي أَنَّ سَوْءَ الْاِكْتَسَابِ وَضَعْفَ الْحَفْظِ أَوْلَى  
أَسْبَابِ الْخَطَأِ فِي التَّعْرِفِ . مَثَالُ ذَلِكَ أَنِّي أَذْهَبُ بَيْنَ حِينَ  
وَآخِرٍ إِلَى الرِّيفِ ، وَالْتَّفَتْ إِلَى هَذِهِ الْبَيْشَةِ الْجَدِيدَةِ فَأَرَى  
فِيهَا مُجَارِيًّا لِلْمَيَاهِ يَسْمُونُ بَعْضَهُمْ تَرْعَاءً وَبَعْضَهُمْ الْآخَرَ مَصَارِفَ .  
فَالْتَّرْعَةُ مُجَرِّيٌّ مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ الَّذِي يَسْتَمِدُ أَصْلَهُ مِنَ النَّيلِ  
وَهِيَ الَّتِي تَرُوِيُ الْأَرْضَ . وَالْمَصْرُوفُ مُجَرِّيٌّ مِنَ الْمَاءِ يَتَسَرَّبُ  
إِلَيْهِ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ بَعْدِ رِيَاهَا ، وَكَلَّا هُمَا مُجَرِّيٌّ مِنَ الْمَاءِ .  
وَقَدْ يَكُونُ أَحَدُهُمَا مُجَاوِرًا لِلآخرِ ، كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّ الْمَصْرُوفَ  
أَعْقَمُ مِنَ الْتَّرْعَةِ ، وَأَنَّ جَانِبَ الْمَصْرُوفِ يَبْدُو عَلَيْهِ بِيَاضٍ مِنْ  
آثَارِ الْمَلْحِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنِّي لَا أَزَالُ أَخْلُطُ بَيْنَهُمَا عَلَى حِينِ  
أَنَّ الْفَلَاحَ يَتَعْرَفُ عَلَيْهِمَا بِكُلِّ بِسَاطَةٍ . فَهَذَا الْخَطَأُ نَاسِئٌ  
عَنْ ضَعْفِ الْعِلْمِ بِحَقْيقَةِ الْتَّرْعَةِ وَالْمَصْرُوفِ . وَيُشَبِّهُ مَوْقِيُّ مِنْ  
شَؤُونِ الرِّيفِ عَلَى وَجْهِ الْعَمُومِ مَوْقِفَ خَادِمَةِ مِنَ الرِّيفِ  
طَلَبَتْ مِنْهَا أَنْ تَحْضُرَ الْكِتَابَ الْمُوْضُوعَ عَلَى الْمَكْتَبِ  
فَأَحْضَرَتْ بِدَلَالِهِ كِرَاسَةً . الْحَقُّ لَيْسَ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْتَّرْعَةِ

والمصرف أمراً عسيراً يصعب اكتسابه ، ولكن المسألة ترجع إلى الميل والاهتمام أو إلى ما يذكره برجسون وهو "الانتباه" ، وعنه أن الاسترجاع ، وكذلك التعرف دورة تبدأ من الانتباه ثم الإدراك ثم التصور ثم الحفظ ثم الاسترجاع ثم التعرف .

وعقد ريبو في كتابه «أمراض الذاكرة»<sup>(١)</sup> فصلاً عن التعرف والتحديد . وهو يتسع في معنى التعرف ويجعله يشمل التحديد في الزمان ، أي أن هذه الحادثة مثلاً وقعت لنا في وقت معين وفي مكان معين . والسبيل إلى ذلك أن العقل يتخذ من بعض الحوادث «نقطة ارتكاز» ، يحدد الحوادث الأخرى بالنسبة لها . وهذا ما يفعله أولئك الذين يحفظون التاريخ ، بل التاريخ نفسه يعتمد على نقطة ارتكاز ، مثل التاريخ الميلادي يبدأ من ميلاد المسيح ، والهجري من هجرة الرسول .

ويتخذ العامة من بعض الحوادث المشهورة بدءاً للتاريخ ، مثل حرب عرabi ، أو الثورة المصرية وهكذا . وهذا ما يفعله كل فرد منا بالنسبة لحوادثه الخاصة ، فهو يتخذ من وفاة أبيه أو زواجه أو بدء عمله نقطة ارتكاز تكون أشبه بالدعائم التي تقوم القنطرة عليها ، وترتبط بها سائر الحوادث الأخرى .

(١) انظر كتابه ص ٣٢ وما بعدها

هذه النقطة هي التي تسهل عملية التحديد في الزمان . ومن الواضح أن هذه الحوادث التي نطلق عليها اسم نقط الارتكاز تكون أبعد عن النساء ، لأنها تصبح آلية لكتلة التكرار والاستعمال . أما الحوادث الأخرى المرتبطة بها فإنها تكون عرضة للنساء وبخاصة كلما ضعفت الصلة بها .

وهذا يوحد ريبو بين التحديد والتعرف ، ويذهب إلى أن التعرف ناشئ عن غموض التحديد . فأنت تقول إذا رأيت وجه شخص : « يبدو أنني رأيت هذا الوجه من قبل ؟ ». ثم تبحث عن الزمان الذي رأيته فيه ، والمكان الذي التقى به ، فتعجز عن ذلك . فصعوبة التعرف راجعة إلى العجز في التحديد .

وذكر ريبو من أسباب هذا العجز المرض والشيخوخة ، وضرب مثلا بمشاهير الرجال لم يتعرفوا على أعمالهم الشخصية . فهذا لينيه Linne كان يلهم في أواخر حياته بقراءة تاليفه ، حتى إذا استغرق في قراءتها ، نسى أنه مؤلفها وصاح « ما أبدع هذا ! ليتني كنت الكاتب ». ولما طعن والتر سكوت في السن أصبح عرضة لهذا الضرب من النساء ، فقد أنشدوا له ذات مرة إحدى قصائده فأعجبته وسأل عن ناظمها ، وكانت إحدى مقطوعات قصيده « القرصان ». وتروي سكريبتوره بلانتين

Ballantyne التي لزمته وكتبت سيرة حياته ، كيف أملى عليها قصة إيفانهو Ivanhoe وهو مريض طريح الفراش ، ثم طبع الكتاب قبل أن يبرح سكوت السرير ، ولم يذكر من القصة شيئاً اللهم إلا فكرتها التي نبتت في ذهنه قبل المرض .

ويروى أن الشاعر روجرز عندما بلغ التسعين من العمر كان يتتره في عربة مع سيدة سأله عن سيدة أخرى لم يستطع أن يتذكرة . فأوقف العربة ونادى على الخادم وقال له : هل أعرف السيدة فلانة ؟ فأجاب الخادم بالإيجاب . ومررت عليهمما لحظة مؤثرة ، ثم أخذ يدها بين يديه وقال لها : لا تقلقي يا عزيزتي ، لم أصل بعد إلى الحد الذي أوقف فيه العربة لأسأل هل أعرفك أو لا .

وعندما نحس بالعجز عن التعرف ، كأن نقابل شخصاً ونسى وجهه أو اسمه ، نعود بالذاكرة إلى الوراء نفتتش أين رأيناها أول مرة ، فتحدد مكانه وزمانه ، ونربط بينه وبين غيره ممن نعرف . وفي ذلك يقول وليم جيمس : « كلما برزت لنا تجربة مجردة عن موضعها في الزمان يصعب علينا ألا نعتقد أنها من اختراع الخيال . ولكنها تصبح قطعة من الذاكرة وتتحدد الذكرى شيئاً فشيئاً كلما أحاطت بها

روابطها - الماضية ، وكلما أصبحت هذه الروابط أكثر تمييزاً .  
 دخلت يوماً عند أحد الأصدقاء ورأيت صورة زيتية معلقة  
 على حائط حجرته ، فأحسست أول الأمر إحساساً غريباً :  
 لا ريب أنني رأيت هذه الصورة من قبل في مكان آخر ،  
 ولكن أين ؟ وكيف ؟ لم أستطع قولاً . وظل هذا الإحساس  
 بأنني رأيتها من قبل يطوف بالصورة إلى أن صحت فجأة :  
 لقد وجدتها ! إنها نسخة من رسم أنجليلكو بأكاديمية  
 فلورنسا . نعم لقد رأيتها هناك . لقد وجب أن أحيا في ذهني  
 خيال أكاديمية فلورنسا كي أتحقق من صدق الذكرى  
 للصورة » .

فهذه هي الطريقة لتدارك نسيان التعرف : أن تسعى لوصول  
ما تراه بما سبق أن رأيته من قبل .

## نسيان الطفولة ونسيان الأحلام

من أغرب الظواهر الخاصة بالنسيان اختفاء الأحداث التي وقعت في الطفولة المبكرة، ونسيان الأحلام التي تمر بنا في النوم.

وليس من الممكن إجراء تجارب معملية ، أى في معامل علم النفس ، كما فعل العلماء في الحفظ ومعرفة طرقه ، ولذلك نلجم إلى « التأمل الباطني » أى أن ينظر الإنسان في باطن نفسه ليذكر ما يشاهده فيها . وهذه إحدى الحالات التي نضطر فيها إلى الالتجاء إلى منهج التأمل الباطني أو الاستبطان . ويستطيع كل من يقرأ هذا الكتاب أن يفعل ذلك في نفسه ، فيتأمل ذاته ويعود مع الماضي إلى الوراء يبحث عن أول ذكري يستطيع أن يسترجعها في طفولته .

أما أنا فأقدم الذكريات التي وقعت لي هي حفلة زفاف عمى ، وكنت في ذلك الحين في الثالثة من العمر تقرباً . ولست أذكر أحداث ذلك اليوم بوضوح ، وإنما هي لمحات تضيء بعض تلك الحوادث ، ومنها أنى لبست « بدلة » جديدة . لست أدرى أكانت أول بدلة لبسها أم لبست قبل ذلك غيرها .

ولا أذكر لونها أو هيئتها . ثم أذكر زحمة شديدة وكأنى كالضائع وسط ذلك الزحام . ثم أذكر عربة مذهبة تجرها عدة جياد ، وكانت تسمى عربة « زينب هاتم » ، هي التي تركب فيها العروس وأذكر أنها كانت واقفة في شارع قريب منا . وفي الليل أتذكر صورة غامضة عن أصوات وموسيقى وأشخاص كثيرين وموائد للطعام ، وأني بكيت ولا أعرف لماذا .

لعلك تلاحظ معى انقطاع الصلة بين تلك الصور الماضية ، بحيث لا تكون سلسلة مرتبطة ، وتلاحظ كذلك غموض تلك الصور ، وتلاحظ ثالثاً أن الصفة العاطفية هي الغالبة ، عواطف فرح وحزن ودهشة .

وهناك حوادث أخرى بعد الثالثة من عمري لا أزال أذكر بعضها في غموض كذلك ، مثل ذهابي إلى كتاب صغير قبل التحاق بالمدرسة ، حيث تعلمت في ذلك الكتاب القرآن حتى سورة « عم يتساءلون » ، وكنت أحمل لوحًا من الإردوaz . وحادثة أخرى لا أذكر إلا شيئاً يسيراً منها ، هي موت أخي لي كان كان اسمه محموداً ، مات محروقاً وهو يعيث بعيدان الثواب ، ولكنني لا أتذكر من صلى بهذا الأخ إلا صورة واحدة وهي أنا نلعب بعد الظهر في فناء البيت .

ويهمني أن أذكر من ذلك الماضي البعيد شيئاً كنت أسميه

« الكابوس » ولا أعلم في أي سن كانت تلك الذكرى ، فهى تدور حول الثالثة أو الرابعة . ففي البيت الذى كنا نقطئنه ، وهو بيت واسع فيه فناء ، كنا نشغل الدور الثانى منه ، ونتناول الطعام وننفق معظم الوقت في حجرتين بين الدور الأول والثانى . ولم يكن نور الكهرباء قد عم البيوت بعد ، فالإضاءة بمصابيح الغاز . وحين يقبل المساء ، نتناول العشاء في تلك الحجرتين ثم يطلبون مني أن أصعد للنوم ويبقونهم ، فاعتذررت مرة عن الانصراف والصعود إلى أعلى واجتياز سلم البيت ، حتى لا أرى « الكابوس » كما كنت أسميه ، وهو عبارة عن أشباح تراءى على الحيطان تخيفنى .

أشباح وخوف ، هذا ما أذكره .

وهنا نجد تقارباً بين نسيان الطفولة ونسيان الأحلام ، لأن الأحلام أشباح تراءى ، والأغلب أنها تصبح بصبغة افعالية أنها الخوف ، فالعلة في نسيان أحداث الطفولة تشبه العلة في نسيان الأحلام . هذه العلة هي اقتراب الصور من « الحقيقة » أو ابعادها عنها ، في الطفولة وبخاصة المبكرة تختلط الحقائق بالخيالات حتى لقد يعيش الطفل في عالم من الخيال والأشباح ، وفي النوم يرى النائم في أحلامه أضيقاً من الرؤى يخيل إليه أنها حقائق . أي أن حقائق الطفل خيالات ،

وخيالات الحالم حقائق ، ولا يستبعى الإنسان إلا الحقائق التي تثبت أنها كذلك ، وهو لذلك ينسى أحداث الطفولة لأنّه كان يضفي على الحقيقة من خياله ما يجعلها أدنى إلى الأشباح ، وينسى الأحلام لأن عقله الواقعى يعلم أنها أضغاث وأباطيل .

هذه إحدى النظريات في نسيان أحداث الطفولة ونسيان الأحلام ، وسوف نعود إلى تفصيلها بعد قليل .

وهناك نظريتان آخرتان إحداهما نظرية فرويد الذى يذهب إلى أن نسيان أحداث الطفولة نتيجة « الكبت » ، وكذلك الحال في الأحلام . والثانية نظرية جمهرة من علماء النفس ومنهم « بيرون » وهى أن نسيان أحداث الطفولة المبكرة يرجع فيها يبدو إلى سبب عضوى ، هو قصور نمو المخ . ولكن هذه العلة إذا صحت بالنسبة للطفلة فهي لا تعلل نسيان الأحلام . هذا فضلا عن اختلاف الأفراد في نسيانهم اختلافاً كبيراً ، فبعض الناس يذكر أشياء وقعت له وهو في الشهر السادس ، والبعض الآخر لا يذكر شيئاً قبل سن الثامنة من العمر .

في تجارب فكتور هنرى وزوجته والتي أجرياها على ١٢٣ طالباً من المراهقين كانت النتيجة كما يأتى :

السن ٦ شهور ٨ سنة  $\frac{1}{2}$  ١٢ ٣ ٢١ ٤ ٣١ ٨٧٥  
العدد ١ ٢ ٤ ٢٦ ١٢ ١٩ ٢٠ ٢٣ ٩

أما بلونسكي Blonsky فقد أجرى تجربتين الأولى على ١٩٠ من الطلبة البالغين الروس ، وترواحت الذكرى بين سنة وثمانى سنوات . والأخرى على ٨٣ طالباً تراوح سنهما بين ١١ ، ١٢ عاماً ، فكانت النتيجة بين سنة وست سنوات . ويرى بلونسكي أن متوسط السن التي يتذكر فيها المرء أحداث الطفولة هي الثالثة .

وأجرى برت Burtt تجربة على ابنه البالغ من العمر ثمانى سنوات ، إذ جعله يحفظ نصوصاً من اللغة الإغريقية ، كان يقرأ عليه بعضها يومياً لمدة ثلاثة شهور ، حين كان عمره بين خمسة عشر شهراً وثلاث سنوات ، فرأى أن النصوص التي كان قد سمعها وهو طفل أسهل في حفظها عن الأخرى ، مما يدل على وجود أثر تلك المحفوظات في تلك السن الصغيرة الغضة .

وقد فطن علماء النفس منذ القرن الماضي إلى احتفاظ الطفل بالآثار التي تقع تحت حواسه ، وإلى ظهورها تحت ظروف خاصة ، ومنها ظاهرة اللغات التي يكون الشخص قد سمعها في طفولته . مثال ذلك ما رواه ريبو نقلاً عن الدكتور

دو قال من أن حطاباً عجوزاً كان يعيش في صباه على حدود بولندا ، ولم يكن يتكلم إلا اللغة البولندية . ثم انتقل بعد ذلك إلى المنطقة الألمانية وعاش فيها . وأكده أولاده أنه لم يتكلم اللغة البولندية منذ أربعين سنة ، وما سمعوا منه كلمة واحدة بولندية . وأجريت له عملية جراحية وظل مخدراً ساعتين كان يتكلم في خلاهم ويصلى ويغنى باللغة البولندية فقط .

ومن العوامل التي تنفس الغبار عن ذكريات الطفولة التخدير بالكلورفورم أو أنواع المخدرات الأخرى . ومن العقاقير الحديثة التي تستعمل في ارتياح اللاشعور عقار يسمى سكوبوكلورالوز Scopochloralose وقد لاحظ الأطباء ظهور ذكريات قديمة عندما يقع المريض تحت تأثير المخدر قبله منه أشياء تعد من العجائب . من ذلك أن امرأة أخذت وهي تهدى تحت تأثير المخدر <sup>تسمع</sup> نصا من لغة أجنبية لا تفهم معناه كانت قد سمعته وهي طفلة دون أن تبذل أي جهد في حفظه .

وكثيراً ما يلجأ علماء النفس إلى التنويم المغناطيسي لمعرفة الأحداث الماضية التي وقعت للمريض أثناء الطفولة ونسوها . وكان العلماء قد عدلوا عن التنويم المغناطيسي إلى طريقة « التداعى الحر » و « التداعى المقيد » وذلك بأن يستلقى

المريض في استرخاء ويأخذ في سرد أفكاره . إلا أن بعض المرضى يأبون أن يتذكروا ويقاومون ظهور كوامن أنفسهم ، ولذلك عاد العلماء منذ الحرب الأخيرة إلى استعمال التنويم المغناطيسي . مثال ذلك أن امرأة أصيبت بداء الوسوسة وكلما غسلت يديها بالماء خيل إليها أنه دم ، وظلت على هذه الحال الحال ثلاث سنوات ، فاستشارت أحد الأطباء النفسيين فتذكريت وهي تحت تأثير النوم المغناطيسي أنها حين كانت في الخامسة من العمر شاركت في ذبح دجاجة فتلوثت يداها بالدماء فغسلتهما . ولكن هذا المنظر أثر في نفسها أثراً شديداً في ذلك ذلك الحين ، وفسيتها مع الوقت ، إلى أن عاد إلى الظهور لشعورياً وهي امرأة .

أما فرويد وأصحاب مدرسة التحليل النفسي فإنهم يذهبون إلى أن كل ما يقع تحت حواس الطفل منذ أن يولد يظل باقياً في نفسه لا يزول أبداً ، ويرجع صاحبه لشعورياً في مستقبل حياته . ويرجع فرويد إلى اللذة الجنسية كل سلوك للإنسان . ويزعم أن الوليد يشعر بلذة جنسية من لمس سطح جلدته ، وأن بعض الموضع أكثر حساسية من غيرها مثل الفم عند امتصاص الثدي ، والأعضاء التناسلية وعنده التبول والتبرز . ولذلك يعلل فرويد إدمان المدخن على وضع « السجارة » في

فهـ إلى تلمس تلك اللذة الـى كان يحس بها وهو طفل رضيع  
يختص ثـدـى أمه ، أو الثـدـى الصناعـى .

ويـهـمنـا أن نـبـسط تـعـلـيل فـروـيد لـنسـيـان الطـفـولـة ، فـهـو  
في مـذـهـبـه يـتـكـون حـولـ الـخـامـسـة من الـعـمـر ، عـنـدـما يـتـكـون  
« الرـقـيب » وـهـو عـبـارـة عن حاجـزـ من التـقـالـيد والـدـين والـنـواـهـى  
الـى تـفـرـضـ عـلـى الطـفـلـ وـخـاصـة في الـحـيـاة الـجـنـسـيـة ، إـذ بـعـدـ أن  
كـانـ الطـفـلـ حـرـأـ لا يـعـقـلـ الـأـمـورـ الـجـنـسـيـةـ وـلـا يـخـفـيـهاـ أـهـلـهـ  
عـنـهـ لـقـلـةـ إـدـرـاكـهـ ، إـذـاـ بـهـ يـؤـخـذـ بـالـشـادـةـ وـيـؤـمـرـ بـإـخـفـاءـ  
الـأـعـضـاءـ الـتـنـاسـلـيـةـ وـيـحـرـمـ عـلـيـهـ الـحـدـيـثـ عـنـهـ وـيـجـدـ سـتـارـاـ حـدـيدـيـاـ  
مـضـرـوـبـاـ حـولـ هـذـهـ مـسـائـلـ . وـبـذـلـكـ يـتـعـلـمـ أـنـ « يـكـبـتـ »  
الـخـواـطـرـ الـى تـدـورـ حـولـ الـأـمـورـ الـجـنـسـيـةـ ، وـهـنـاـ يـبـدـأـ الرـقـيبـ  
أـنـ يـتـكـونـ وـيـصـبـحـ حاجـزـ يـخـتـىـ وـرـاءـهـ كـثـيرـاـ من الـأـشـيـاءـ يـتـعـودـ  
نسـيـانـهـ معـ الزـمـانـ ، وـيـخـافـ ظـهـورـهـاـ وـيـهـربـ منـ النـظـرـ إـلـيـهـاـ  
بلـ وـمـنـ التـفـكـيرـ فـيـهـ . وـلـيـسـ الـحـيـاءـ الـذـىـ يـصـاحـبـ المـرـءـ حـيـنـ  
يـوـاجـهـ الـمـسـائـلـ الـجـنـسـيـةـ إـلاـ مـظـهـرـاـ مـنـ مـظـاهـرـ الـخـوفـ . وـلـذـلـكـ  
كـانـ ماـ يـخـفـيـهـ المـرـءـ ، وـيـكـبـتـهـ ، أـوـ يـنـسـاهـ ، هوـ ماـ يـخـافـ مـنـهـ ،  
وـمـاـ يـكـوـنـ مـصـدـرـ أـلـمـ لـهـ .

وـلـاـ تـثـبـتـ نـظـرـيـةـ فـروـيدـ لـلنـقـدـ طـوـيـلاـ ، لـأـنـ مـتوـسـطـ سنـ  
الـنـسـيـانـ لـأـحـدـاثـ الطـفـولـةـ هـوـ الـثـالـثـةـ كـمـاـ اـتـضـعـ منـ الـتـجـارـبـ

العلمية ، على حين أن الرقيب الذي يحدثنا عنه فرويد لا يظهر إلا بعد الخامسة . ومن جهة أخرى نرى أن كثيراً من ذكريات الطفولة التي لا تزال حية عند أصحابها هي ذكريات تقوم على الخوف أو الألم ، مما ينافي نظرية فرويد في الكبت .

ونحن نميل إلى تأييد النظرية الاجتماعية في نسيان الطفولة ، وهي نفسها تنطبق على نسيان الأحلام .

وليس من الممكن تطبيق المناهج العلمية الموضوعية على الأحلام كما يفعل العلماء في ظواهر نفسية كثيرة . لأن الحلم يدور بينه وبين صاحبه ولا يمكن ملاحظته من الخارج ، بل أكثر من ذلك لا يمكن لصاحب أنه يلاحظ نفسه وهو يحلم إلا بعد اليقظة ، فإما أن يتذكر الرؤيا وإما أن ينساها . وذهب بعض العلماء إلى أن كل إنسان يحلم في نومه ولكنه لا يتذكر . والأغلب أن الحلم سريع النسيان ، ولذلك نصح العلماء الذين يدرسون الأحلام أن يحتفظ المرء بورق وقلم إلى جانب السرير حتى إذا استيقظ عقب الرؤيا دوّتها مباشرة قبل أن تغيب في مجاهل النسيان . ويقول بعض العلماء إن الأحلام لا تظهر إلا في الوقت الذي ينحف فيه النوم ، أما النائم المستغرق في نومه فلا يحلم . وهم يعتمدون في تأييد هذه النظرية على أن الباعث إلى الأحلام هو الإحساسات الظاهرة أو الباطنة ،

ولا يحس المرء إلا إذا كان في شبه يقظة .

وعند فرويد أن النوم الصحيح ما كان بغير أحلام ، فإذا حلم المرء كان هذا دليلا على أن صاحب الرؤيا لا يزال يتاثر بالمؤثرات الخارجية والداخلية ، غير أن هذه التأثيرات خارجية كانت أم داخلية أى في صورة رغبات ومخاوف ، تتحول إلى صور عجيبة في الحلم فلا توقف النائم ، ولذلك كان الحلم تحقيق رغبة لا يمكن تحقيقها في الواقع ، وهو لهذا السبب « حارس النوم » .

وتمتاز الأحلام بأمرتين : خروجها عن منطق العقل في تركيب الصور ، وعدم تقديرها بالزمان . وكلا الأمرتين لا يتفقان مع الحياة الواقعية التي يعيش فيها الإنسان مع غيره من الناس ، ويضطر إلى تقدير نفسه بترتيب الأحداث ووضعها في موضعها من الماضي كي يكون مفهوماً من غيره حين يحدّثهم عن هذه الأحداث معتبراً عنها بالكلام .

فالحياة الواقعية تضطرنا إلى التذكرة ، أى وضع الأشياء في موضعها الصحيح من الزمان . ويضرب الأستاذ بيير جانيه مثلاً لاضطرار المرء إلى التذكرة بمعسكر لجماعة من البدائيين وضعوا عليه ديدبانا مكلفاً بمراقبة الأعداء ومعرفة حركاتهم ونقلها إلى رئيس القبيلة ، ويضطر الديدبان إلى روایة

ما حدث من ذاكرته بطريقة مفهومة مرتبة ، فهو يجب عن أسئلة الرئيس واستفهاماته بأن هذا الشخص جاء « قبل » ذاك ، وجرى هذا الشخص « بعد » ذاك ، وقع هذا الحادث في الصباح ، وذلك الحادث عند الظهر ، وهكذا . وإذا نسي الديدبان هذه الحوادث ، أو اضطرب في روايتها ، أدى ذلك إلى وقوع القبيله بأسرها في الخطر .

ونحن في الحياة الواقعية مضطرون إلى التعامل مع غيرنا من الناس في هيئة معقولة من الكلام ، وإلى ترتيب الحوادث ترتيباً صحيحاً في سجل الزمان . نحن إذن في حياتنا الواقعية « مقيدون » . ولا تحسين أن هذا التقييد الذي تفرضه علينا الحياة الاجتماعية يرافقنا ، ولذلك « نهرب » منه ، أى نهرب من القيد . ولكن أين المفر ؟ إننا نهرب في أحلام اليقظة ، وفي الأحلام ، حيث تكون أحراراً لا نتقييد بترتيب الزمان . فالطالب في أول العام يتصور وهو في أحلام يقظته أنه نجح في الامتحان آخر العام ، والناجر يرى في أحلامه أنه كسب في تجارتة ، وكلاهما يتحقق رغبته بغير جهد ، ويقفز إلى المستقبل كأنه الحاضر دون أن يمر بمراحله . جملة القول لا يراعي الإنسان في أحلامه ترتيب الزمان ، ولا يحفل به ، فيرى الماضي حاضراً ، و يجعل المستقبل ماضياً ، وهذا كله اختلال

لا ترتضيه الذاكرة ، ولا حاجة بعد ذلك النسيان ، بل ولا حاجة إلى التذكر أصلاً ، وهذا هو سر نسيان الأحلام عقب وقوعها .

ومن هذا الوجه يمكن تعليل نسيان الطفولة أيضاً ، لأن الطفل قبل الثالثة من العمر لا يميز الزمان ، فهو لا يعرف الوقت ولا يدرى اليوم من الأمس حتى ليقول ذهبتنا « باكر » إلى الحديقة وهو يريد « الأمس » ، ولو سئل عن الوقت فهو ليل أم نهار لم يميز لأنه لا يعرف ، فهو من أجل ذلك لا يستطيع أن يتذكر ، وهذه هي علة نسيان الطفولة ، يعني عدم إدراك الطفل للزمان .

وقد مر بنا في ابتداء هذا الكتاب أن الذاكرة نوعان ، آلية ولغظية ، أو حركية ومعقوله ، ويضيف بعض العلماء إلى هذا التقسيم نوعاً ثالثاً هو الذاكرة « الوهمية » ، فإذا كانت الآلية تعتمد على الإحساس والحركة وتعلم الإنسان والحيوان ، فإن الذاكر اللغظية « اجتماعية » لأن الألفاظ المنطقية التي تعبّر عن المعنى إنما نشأت لحاجة الإنسان إلى التعامل مع غيره من بني جنسه ونقل أفكاره إليهم ، أما الذاكرة الوهمية فهي « لا اجتماعية » وهي التي تظهر عند الطفل في بدء نشأته ، وعند المريض الذي يهذى ، وعند النائم الذي يحلم . ذلك أن

الصور التي تتتابع في الأحلام والهذيان تبعث مشاهد من الماضي ، ولكن صاحبها لا يراها قطعة من الماضي بل جزءاً من الحاضر ، لأنها بالنسبة له حين يهدى أو يحلم حاضر وواقع . ذلك أن الذاكرة في الحلم تعيش فيه كأنه هو الحقيقة ، وقد يعتقد الحالم في حلمه إلى حد يبعشه إلى الحركة في helpless من فراشه ويأتي أعملاً كثيرة كما هي الحال في « الجولان النومي » .

ويذهب معظم العلماء إلى أن ظهور ذكريات الطفولة لمبكرة نوع من فيض التذكر أو إفراط في التذكر Hypermnésie كهذه الأمثلة التي ضربناها عن الذين تذكروا لغات أجنبية سمعوها في الطفولة . ويفسر جان ديلاي هذا الإفراط بأنه تحرير للذاكرة الوهمية التي تحجزها الذاكرة الاجتماعية عادة وما يتصل بالحياة الاجتماعية من انتباه وتقيد وملاءة مع الواقع . فإذا زالت الحواجز الاجتماعية تحطمت الذاكرة العقلية وفاحت الصور على هواها ، وكان ذلك علة أمراض الذاكرة .

جملة القول نحن نذكر ما يهمنا كما قلنا من قبل ، وما يهمنا خاضع لمنطق الواقع في الحياة الاجتماعية ، اللهم إلا إذا عجز المرء عن مسايرة المجتمع ولئن منه عنتاً ، فهو يهرب منه ويعيش في عالم الوهم والخيال ، وينخلق الصور على هواه . وهذه هي حال الطفل ، وحال النائم الحالم .

(وَمَا يَلَاحِظُ أَنَّ الْطَّفَلَ يَمْرُ بِالذَّاكِرَاتِ الْثَّلَاثَ عَلَى التَّوَالِي ، فَهُوَ يَبْدُأُ بِالذَّاكِرَةِ الْآلِيَّةِ فَتَنَشَّأُ عِنْدَهُ عَادَاتٌ تَقْوِيمُ عَلَى مَا يَتَعَلَّمُهُ بِطَرِيقِ الْخَوْلَةِ وَحْذَفِ الْأَخْطَاءِ وَطَرِيقِ الْأَفْعَالِ الشَّرْطِيَّةِ . وَيَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ فِي الثَّانِيَّةِ وَالثَّالِثَيْنِ وَالرَّابِعَيْنِ بِمَرْجَلَةِ الذَّاكِرَةِ الْوَهْمِيَّةِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا فِي عَالَمٍ مِنَ الْخَرَافَةِ وَالْأَوْهَامِ ، لَا يَمْيِيزُ بَيْنَ الْمَاضِيِّ وَالْحَاضِرِ ، وَلَا يَفْصِلُ بَيْنَ الْخَيْالِيِّ وَالْحَقْبَيِّ . وَهُنَّاكَ بَعْضُ الصَّبِيَّانِ الْمُتَخَلِّفِينَ يَقْفَوْنَ عِنْدَ هَذِهِ الْمَرْجَلَةِ مَعَ بَلوغِهِمْ سِنًا كَبِيرَةً . حَتَّى إِذَا بَلَغَ الطَّفَلَ الْخَامِسَةَ بَدَأَ فِي مَرْجَلَةِ جَدِيدَةٍ هِيَ مَرْجَلَةُ الذَّاكِرَةِ الْإِجْمَاعِيَّةِ ، وَهِيَ ذَاكِرَةٌ مُنْطَقِيَّةٌ مَرْتَبَةٌ تَنْتَظِمُ فِي سَلَكِ الزَّمَانِ .

وَإِذْ قَدْ وَفِينَا الْبَحْثُ عَنِ النَّسِيَانِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي يَعِمُ أَغْلَبَ النَّاسِ ، فَلَنَكْتَفِ بِهَذَا الْقَدْرِ وَلَنَتَتَّلِقَ إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ النَّسِيَانِ الَّذِي يَعْدُ فِي بَابِ الْمَرْضِ وَالشَّذْوَذِ .

## النسيان في الحياة اليومية

اهتم فرويد بهذا الموضوع منذ أكثر من خمسين عاماً ، وكتب فيه كتاباً اسمه « المرض النفسي في الحياة اليومية » نقل إلى معظم اللغات الحية ، بما عدا اللغة العربية . وقد قرأت الكتاب منقاولاً إلى الفرنسية ، وتوجد منه طبعة إنجليزية رخيصة . ولكن ترجمته إلى العربية في غاية الصعوبة لأن المؤلف يشير إلى أسماء واصطلاحات باللغة الألمانية لا تفهم إلا في أصلها . والكتاب على الرغم من مخالفتنا لمذهب صاحبه في غاية الطرافة لأنه يقوم على رواية حوادث شخصية يحللها فرويد على نفسه أو يحكىها عن أشخاص عرفهم وسألوه رأيه . وهو يتحدث في الفصل الأول عن نسيان أسماء الأعلام وفي الثاني عن الأسماء الأجنبية وفي الثالث عن نسيان الألفاظ وفي الرابع عن ذكريات الطفولة ، إلى فصول أخرى كثيرة .

ونحب أن نقف عند ذكريات الطفولة ليكون الحديث موصولاً بما سبق . وليس ن المهم أن نبدأ بباب معين ، لأن فرويد صاحب نظرية عامة يفسر بها جميع المظاهر النفسية . وأساس هذه النظرية الاعتقاد بوجود « حتمية

بسيكولوجية » أي أن أي سلوك إنساني مهما يكن تافها فلا بد  
 أن يخضع لعلة ، وإذا عجزنا عن معرفة هذه العلة فذلك نقص  
 في علمنا . ثم يقسم فرويد الحياة النفسية إلى شعورية ولاشعورية  
 وأن الأحداث اللاشعورية هي التي توجه السلوك الشعوري .  
 وهذه الحياة اللاشعورية لها منطقها الخاص ، وإذا أخفيت  
 بعض الأمور نتيجة « الكبت » ، فإنها تظهر في ثوب مقنع  
 بما يسميه الاستبدال أو الانتقال . ويعتمد فرويد على النسيان  
 في الدلالة على وجود هذه الحياة اللاشعورية .

ولنرجع إلى حديث نسيان الطفولة . وقد لاحظ فرويد أن  
 أحداث الطفولة المبكرة التي نذكرها هي في الغالب تافهة  
 وعديمة القيمة ، ونسى إلى جانب ذلك حوادث أخرى عظيمة  
 الأثر . فإن قال قائل إن التذكر يقوم على الاختيار ، وأن  
 الطفل قد اختار هذه الأحداث دون غيرها لأن عقليته تختلف  
 عن عقلية الكبار ، رد عليهم فرويد بأن النظر العميق يدل  
 على أن هذه الحوادث التافهة لها دلالتها ، لأنها تخفي وراءها  
 أموراً أخطر ، وترتبط بها بما يسميه عملية الاستبدال Déplacement  
 ومن أجل ذلك يسمى فرويد حوادث الطفولة التي تذكرها  
 حوادث للتعمية أو التغطية Souvenirs de couvertures ،  
 لأمور جنسية يكتبها صاحبها .

هذا شاب في الرابعة والعشرين يتذكر وهو في الخامسة أنه جالس في حديقة متزل ريف إلى كرسى بجانب عمته التي كانت تعلمه الإيجادية . ولقي مشقة في التمييز بين حرف الميم والنون ( باللغة الإفرنجية N و M ) فطلب من عمته أن تعلمه كيف يميز بينهما ، فأخبرته أن الميم ( بالإفرنجية طبعاً) لها رجُل تزيد على النون . وحول ذلك الوقت أراد أن يعرف الفرق بين الولد والبنت فطلب من عمته أن تخبره عن هذا الفرق فأجابته الحواب نفسه . يقول فرويد إن العلة في تذكر هذه الحادثة التافهة أى الفرق بين الميم والنون رمز يختفي وراءه التمييز الجنسي بين الولد والبنت .

لفت النسيان نظر فرويد ولم تقنعه تعليلات غيره من من العلماء فأخذ يراقب نفسه يحللها ، كما أخذ يصف ذاكرته وقوتها قال : إنني لا أنسى بسهولة وكنت في حداثة سنِي صاحب ذاكرة فائقة الحد في القوة . في عهد التلمذة كان يلذ لي أن أردد عن ظهر قلب صفحة بأكملها عقب قراءتها ، وكان في استطاعتي إعادة مخاضرة علمية بعد ساعتها . واستطعت في امتحان دبلوم الطب أن أجيب عن الأسئلة بما جاء في الكتب المقررة مع أنني لم أقرأها إلا مرة واحدة قراءة عاجلة . ولم تضعف ذاكرتني منذ ذلك الحين .

وإنما ساق فرويد هذه المقدمة عن قوة ذاكرته ليبين أنه إذا نسي بعد ذلك شيئاً كان الأمر يدعو إلى الغرابة . وهذه إحدى نوادر نسيانه قال : كنت مكلفاً أن أشتري لسيدة جاءت حديثاً إلى فينا صندوقاً حديدياً تحفظ فيه أوراقها وأموالها . وكان في ذهني في الوقت الذي عرضت عليهما معونتي صورة واضحة لواجهة محل في وسط المدينة رأيت فيه هذا النوع من الخزائن . ومع أنني لم أذكر اسم الشارع إلا أنني كنت على يقين من العثور على المحل إذا تجولت في المدينة لأنني أذكر أنني مررت به مئات من المرات . ولكن العجيب من الأمر أنني عجزت عن معرفة المحل على الرغم من البحث في الدليل لمعرفة عنوان جميع مصانع الخزائن . ولم أكن في حاجة إلى ذلك كله إذ لم يكدر بصرى يقع على اسم المحل في الدليل حتى عرفته وتذكريه . ولا ريب أنني كنت قد مررت بذلك المحل مئات المرات من قبل كلما ذهبت لزيارة أسرة « فلان » التي تسكن في البيت نفسه الذي يوجد فيه ذلك المحل . فلما قطعت صلبي بتلك الأسرة تعودت دون أن أشعر أن أتجنب المرور في ذلك الحي وبتلك الدار ، نتيجة الشعور بالكرابية لأهل الدار . أما نسيان محل الخزائن فيرجع إلى ارتباطه بالدار ، أو على حد تعبير فرويد نتيجة عملية استبدال أو انتقال .

ومن الأمور التي يشكو كثير من الناس نسيانها الأشياء التي يطلبونها من مواضعها فلا يعثرون عليها ، لأنهم ينسون أين وضعوها ، كالحال في المؤلف الذي ينسى أين وضع كتاباً أو ورقة . ويروى فرويد أنه لا يجد صعوبة ما في البحث عن كتاب وضعه على مكتبه ، ولكنه عجز في إحدى المرات عن إيجاد قائمة بالكتب (كتالوج) استلمه بالبريد ، وكان عازماً أن يطلب كتاباً قرأ عنوانه فيه وهو يتعلق باللغة ، ومؤلفه من يحب فرويد أسلوبهم ويقدر آراءه في علم النفس والتاريخ والحضارة . ويدهب فرويد إلى أن هذا الإعجاب بصاحب الكتاب هو علة نسيان الكتالوج .

ونقل فرويد عن غيره هذه الحادثة للدلالة على أن معرفة سبب النسيان يؤدي إلى ذهاب النسيان قال : أرادت فتاة أن تقص قطعة من القماش فأفسدتها عندها قصت الياقة واضطررت إلى استدعاء حائكة ثياب لإصلاح ما أفسدته . فلما وصلت الحائكة بحثت الفتاة في كل مكان عن القماش ، وقلبت الأدراج رأساً على عقب دون فائدة ، حتى إذا أخذ الغضب منها ما نبذه أخذت تحدث نفسها قائلة كيف اختفى القماش ، لا ريب أني « لا أريد » العثور عليه . ولما عاد المدرب إلى نفسها تبيّنت أنها كانت في خجل أن تظهر الحائكة على عجزها عن

قص ياقه فستا . وبعد أن اطمأنت إلى هذا التفسير قامت من مكانها واتجهت إلى أحد الدواليب واستخرجت منه قطعة القماش .

وأنت ترى من هذه الأمثلة البسيطة التي نقلناها عن كتاب فرويد أنه لا يرجع كل نسيان إلى علة جنسية ، أو إلى علة عميقه الحذور في الطفولة ، فقد يكون الأمر مجرد بعض أو نفور أو هيبة أو خوف ولكن هذه العواطف تكمن في اللاشعور وتحرك صاحبها .

والرأي عندي الذي وصلت إليه نتيجة تجاري الخاصة أن ما يحبه المرء يقبل عليه ويذكره ، وما يبغضه ينفر منه ويبتعد عنه ، إما شعوريًا وإما لاشعوريًا . فهذه سيدة أغلقت الدولاب بالمفتاح ووضعت المفتاح في حقيبتها عند خروجها خشية أن تعتقد يد الخادمة إلى العبث بالمجوهرات الموضوعة في صندوق داخل الدولاب وأن تسرقها . ويتبين بعد ذلك أن السيدة حين تنبهت إلى هذا الأمر ونظرت إلى الصندوق كانت قد أخرجته ووضعته على السرير إلى جانب الدولاب وفيته هناك . فلما عادت من الخارج عجبت كيف نسيت الصندوق على السرير مع شدة عنایتها أن تحفظ حلية من السرقة ، وأن تقول عاليها عليها بالمفتاح . وتبيّن من التحليل النفسي أنها ترغب في تغيير

عليها وشراء حلٍ جديدة .

وكنت في صدر شبابي حاد الذاكرة لا أنسى مما أقرأ شيئاً . وكان يكفي أن أقرأ الكتاب مرة واحدة حتى ترسم صفحاته في ذهني ، حتى إذا حضرت الامتحان تمثلت الكتاب أمامي كأني أقلبه ، ذلك أن ذاكرتي بصرية ، وقراءتي صامتة . واشترىت وأنا في الثانية عشرة من عمري مصحفاً صغيراً أضعه في جيبِي وعزمت على حفظ بعض سور من القرآن ومنها سورة «يس» . ثم انقطعت عن قراءة القرآن وحفظه ، وسألني والدى فيما بعد — وكان كثير التلاوة والعبادة — لماذا لا أحفظ القرآن ، فأخبرته أنني أحفظ سورة «يس» ، فلم يصدق ، فتلوها عليه فاندهش . ولكن هذه الذاكرة الشديدة القوة قد ذهبت الآن إلى درجة أنني أنسى أسماء الكتب ومؤلفيها مع اشتغالِي بتدریسها . وأغرب من ذلك نسيان أسماء الأشخاص الذين أعرفهم والذين تربطني بهم صلات قوية . وكثيراً ما تحدثت لى هذه الظاهرة الضيقَ والحرج ، إذ أقابل شخصاً في الطريق أعرفه من شكله ، فأسلم عليه ، ويهديني السلام ، ويحييني باسمِي ، ونتحدث معاً حديث الأصدقاء ، ولكن اسمه يهرب مني ولا يجرئ على لسانِي ، وقد أذكره بعد أن نفترق وبعد أن أفتتش عنه في ذاكرتي مستعيناً بالروابط الذهنية الماضية .

ويكشف حرجى إذا كان معى صديق آخر ، أو قدم علينا شخص ثالث ، ويصبح من واجبى القيام بتقديم أحدهما إلى الآخر وتعريف بعضهما إلى بعض .

وأخبرنى أحد أصدقائى المحامين ، وكذا نتحدث عن عجائب النساء ، وأخذ كل واحد يذكر نوادره ، قال : كلفنى صاحب المكتب الذى أشتغل عنده أن أبحث قضية وأكتب فيها مذكرة ، وبعد يومين سألنى عن رأى فى تلك القضية ، فقلت له إننى لم أبحثها بعد . قال : كيف لم تبحثها وقد قدمت فى موضوعها مذكرة ؟ قلت : إننى لم أكتب أى مذكرة . فأنحرج من بين أوراقه المذكرة وأطلعني عليها وقال : أليس هذا خطك ؟ وعندي فقط تذكرة ، وعجبت لهذا النسيان .

ومن أغرب حوادث النساء التى وقعت لى أنى كنت فى زيارة برلين عام ١٩٣٦ فى دورة الألعاب الأولمبية ، وكانت النقود التى يصرفونها فى ذلك الحين نقود سياحة تقل أربعين فى المائة عن السعر资料 لاجتذاب السائحين ، على أن يصرف هذا النقد أو المارك مع التوقيع على جواز السفر فى صورة شيكات تسمى « الرايخ مارك » وهى لا تصرف إلا من البنك . فى صباح اليوم الثانى من وصولى برلين ذهبت إلى البنك

لأصرف الشيكات ، ولكنني نسيت جواز السفر في الفندق ، فلم أستطع الصرف في ذلك الصباح . وعادت بعد الغداء إلى الفندق ، وجلست عند الأصيل أكتب بعض الرسائل إلى أصدقائي ولحت أمامي جواز السفر فقلت ضعه في جيبك حتى لا تنساه ، ثم تحسست شيكات الرايخ مارك فلم أجدها . فطار صواني إذ لم يكن معى مال غيرها أنفقه في ذلك البلد . وجلست أتذكر أين وضعتها ، وأين يمكن أن تكون قد نسيتها ، واستعرضت جميع الأماكن التي ذهبت إليها ، وطرقها أساها ، وأخيراً ذهبت صباح اليوم التالي إلى البنك وسألت عنها ، فأخبرني الموظف هناك أنني نسيتها على المنضدة .

وأحسب أن تعليل فرويد من أنني أكره هذه الشيكات في اللاشعور تعليل لا يستقيم . وإنما العلة الصحيحة هي تلك القاعدة التي سبق ذكرها من قبل في باب الحفظ ، وهي عدم التداخل ، لأن ازدحام الذهن بعدهة أمور في آن واحد يؤدي إلى التضارب وإلى الاختلاط . وقد قيل ما جعل الله لرجل من قلبيين في جوفه .

هذا إلى أنني حين أشتيغل بعمل عقلي ، كتأليف كتاب ، أو كتابة مقالة ، أو إلقاء محاضرة ، أنصرف إليه انصرافاً تماماً ، فأستغرق فيه ، وأظل أفكر في الموضوع حتى وأنا أمشي

في الطريق أو أركب الترام أو أختلف إلى مجلس من الأصدقاء، حتى إذا اجتذبني التأمل ذهلت عما حولي . وأحسب أن هذا الاستغراق شرط كل منتج وكل مبتكر . وليس من الغريب بعد ذلك أن تسمع القصص عن بعض العلماء الذين نسوا حتى اسم أنفسهم لأن أذهانهم كانت مشغولة بالتفكير في حل المسائل .

وقد يكون الاستغراق الذي يصرف الذهن عن الناس وعن الأشياء لعنة أخرى غير علة الابتكار والاختراع والتأليف ، لأن انشغال البال قد يرجع إلى الهموم التي تفضي إلى القلق . وما باللك بمن فقد ماله أو ولده أو أصيب بمرض يستعصى شفاؤه وغير ذلك من الصعاب التي تواجهه المرء ولا يجد لها حلاً أو مخرجاً ، فيظل حبيس نفسه تنقله الهموم وتدور في رأسه الأوهام . حتى ليغفل عما حوله ، وإذا اشتد به الهمسي كل شيء ، لا بعض الأسماء أو الأشياء فقط . ومن شأن الكوارث إذا نزلت أن تزيد في حدة التذكر أو تدفع إلى النسيان كما قال البحيري يصف إيوان كسرى :

ذكرتنيهم الخطوب التوالي ولقد تذكر الخطوب وتنسى  
ثم إن اتساع العمران وتعقد المصالح في الحضارة الحديثة  
مما تنوء به ذاكرة أى فرد ، ومن أجل ذلك اهتدى الإنسان

إلى الكتابة يقييد معلوماته ، وأصبح يستعين بالمذكرات أو المفكرة يدون فيها مواعيده ويعلم منها مصالحه في غدّه وما بعد غدّه . وهذا التقىيد ضرب من التنظيم حتى لا يعول المرء تعويلاً تاماً على ذاكرته ، التي قد تثقلها المشاغل والمواعيد .

ولكن فرويد لا يؤمن بهذه الأسباب العامة ، ويخاول أن يلتمس سبباً لنسيان كل اسم يغفل عنه من يريده تذكرة . وهو يعني على غيره من علماء النفس - في استهلال الكتاب الذي نقل عنه - أنهم إذا سئلوا لم ينسى المرء اسم صديق قالوا : لأن أسماء الأعلام أقرب من غيرها إلى النسيان . ثم يروي فرويد قصة نسيانه اسم فنان يسمى سيوريللي Signorelli معللاً ذلك بالكبت والإبدال . قال : كنت في رحلة ومعي أحد الغرباء في العربة ونحن نجتاز دلاسيما من أعمال البوسنة عام ١٨٩٨ . ودار بيتنا الحديث حول إيطاليا وسألت رفيقي هل زار مدينة أورفيتو Orvieto حيث توجد الكتدرائية المشهورة التي صور على جدرانها الأستاذ . . . . . وهنا نسيت اسم ذلك الأستاذ ، وقفز إلى خاطري بدلاً منه اسم مصوريين آخرين هما بوتشيلي Botticelli وبولترافيو Boltraffio ، عرفت في الحال أنهما غير مقصودين . وشرعـت أبحث عن السبب في نسيان اسم « سيوريللي » ،

فرأيت أنه نتيجة اضطراب بين موضوع الحديث السابق وبين  
 هذا الحديث . ذلك أنني قبل أن أسأل رفيقي عن زيارته  
 مدينة أورفيتو كنا نتحدث عن عادات الترك الذين يقطنون  
 البوسنة والهرسك ، وقلت لرفيقـ ما نقله إلى أحد الأصدقاء من  
 أن هؤلاء الأتراك يثقوـ ثقة عمـاء بالطـب كما ينفرونـ نفورـاً  
 قوياً من الموت . وذكرت له كذلك قصة أخرى عن انغماسـ  
 هؤلاء القوم في الأمور الجنسـية ، وأن أحدـهم إذا أصيبـ  
 باضطرابـ أو ضعـف جنسـي جـزعـ جـزعـاً شـدـيدـاً لا يتـلاءـمـ  
 مع نـفـورـهـمـ منـ الموـتـ . وروـيـ صـاحـبـيـ ماـ قالـهـ لهـ أحدـ المـرـضـيـ  
 منـ أنـ الأمـورـ الجـنسـيـةـ إـذـاـ اـضـطـرـبـتـ فـلـنـ تـسـاوـيـ الحـيـاةـ شـيـئـاًـ .  
 وعدلـتـ عنـ هذاـ الحديثـ الدـقـيقـ الشـائـكـ معـ رـفـيقـ سـفـرـ غـرـيبـ  
 وحولـتـ مجرـىـ الحديثـ عنـ كـلـ ماـ يـتـصـلـ بـالـجـنسـيـاتـ وـالـموـتـ .  
 وكـنـتـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ وـاقـعاًـ تـحـتـ تـأـثـيرـ حـادـثـةـ عـلـمـتـ نـبـأـهاـ  
 مـنـذـ أـسـابـيعـ بـعـدـ إـقـامـةـ قـصـيرـةـ فـيـ مـدـيـنـةـ تـرـافـواـ Trafoiـ  
 ذـلـكـ أـنـ أـحـدـ المـرـضـيـ الـذـينـ كـنـتـ أـعـابـلـهـمـ اـنـتـحرـ بـسـبـبـ  
 اـضـطـرـابـاتـ جـنسـيـةـ لـمـ يـشـفـ مـنـهـاـ . وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ مـخـاـولـيـ إـبعـادـ  
 الحديثـ عنـ الـأـمـورـ جـنسـيـةـ مـنـ ذـهـنـيـ ، فـإـنـ تـلـكـ الـحـادـثـةـ  
 كـانـتـ تـلـحـ فـيـ الـظـهـورـ ، عـنـ لـاـشـعـورـ ، وـذـلـكـ لـلـصـلـةـ بـيـنـ  
 اـسـمـ بـولـرـافـيوـ الـمـصـورـ ، وـاسـمـ الـمـدـيـنـةـ تـرـافـواـ . كـنـتـ أـوـدـ نـسـيـانـ

ما يتصل بذلك المدينة فأدى ذلك إلى «كتب» ذلك الأمر .  
حقاً لم أكن أرغب في نسيان اسم المصور الذي صور على  
حوائط كنيسة أورفيتو ، إلا أن الرابطة بين ذلك الأمر وهذا  
الاسم أدت إلى نسيان اسم الشخص رغمماً عنى على حين أن  
عزمي كان متوجهاً إلى نسيان تلك الحادثة .

وهكذا يمضي فرويد في تحليل طويل ليبين فيه الصلة  
بين نسيان أسماء الأعلام وبين حوادث أخرى يريد الإنسان  
كتبها ودفعها إلى مجاهل النسيان .

وهناك طائفة من الأمثلة يضر بها فرويد على نسيان الأسماء  
وترجع إلى «عقدة شخصية» أي إلى موضوع يتصل بشخصه  
ويشير فيه افعالات قوية هي في الأغلب مؤلمة . والغريب أن  
الرابطة بين الاسم الذي ينساه فرويد وبين شخصه رابطة  
لا يتوقعها ، فهي تقوم على تشابه ظاهري ، في الرسم أو  
الصوت أو المعنى . مثال ذلك أن أحد مرضاه طلب منه أن  
يdale على عين ماء ساخنة في الرفيرا ، وكان يعرف إحدى هذه  
العيون ، بل ويعرف كذلك اسم الطبيب الذي يعالج عندها ،  
ولكنه عجز عن تذكر اسم تلك العين ، فالمتس من المريض  
الانتظار بعض الشيء حتى يسأل بعض أقاربه . وقيل له كيف  
تنسى اسم ذلك الطبيب وقد أمضيت عنده زماناً ، إنه يدعى

نرث Nervi ، ويعمل فرويد نسيان ذلك الاسم بأنه قريب الشبه من لفظة الأعصاب بالألمانية Nerven ، والأعصاب والأمراض العصبية هي التي تشغله على الدوام .

ويروى «يونج» أن شخصاً كان يحب فتاة ثم تزوجت من شخص آخر غيره ، كان يعرفه من زمن طويل لصلة أعمال بينهما ، فإذا به الآن ينسى اسمه كلما أراد أن ينطق به ، وإذا أراد أن يكتب إليه رسالة طلب معرفة اسمه من شخص ثالث .

ولا ريب في أن مذهب فرويد وأصحاب التحليل النفسي له وجاهته ، وهو يفسر إلى حد كبير العلة في نسيان الأسماء والأشياء ، لو لا بعض المغالاة التي يتصف بها مذهبهم .

## فقدان الذاكرة

هذه قصة قرأتها في جريدة «الأخبار الجديدة» بتاريخ ١٨ / ٩ / ١٩٥٣ عن شاب في التاسعة عشرة من عمره فقد الذاكرة ، ولا يعرف اسمه ، ولا بلده ، ولا أهله ، ولا صناعته ، ولا تاريخ حياته ، ثم فقو النطق بعد أن فقد الذاكرة .

وأول مرة أغمى فيها هي ٢٦ / ٨ / ١٩٥٣ ، وأصبح لا يذكر شيئاً عن ماضيه قبل ذلك . وقد استيقظ من إغمائه ليجد نفسه فجأة في منزل رجل فقير لا يعرفه ، أخذ يعني به حتى إذا عاد إلى نفسه واستمع إلى صاحب الدار يروي له كيف وجده مغمى عليه في الطريق ، أسرع بالخروج إلى الطريق مرة ثانية . وحاول أن يتذكر عنوانه أو الحادثة التي وقعت له ، أو حتى اسمه ، فلم يستطع . وعندئذ عرف أنه فقد ذاكرته ، فقد أهله ، فقد ماضيه ، كأنه ولد من جديد . وسار في الطرق على غير هدى بلا هدف يحاول البحث عن أهله دون جدوى . وشعر في أثناء سيره بشارع الأزهر بشغل شديد في رأسه فقد على أثره الحس . وأفاق من غيبوبته ليجد نفسه في مستشفى الدمرداش وحوله جموع من الأطباء ، قالوا إنه تناول

مخدرأً قويأً أفقده الذاكرة ، فأجرى له غسيل في المعدة ولم يعثر على أي أثر لمخدر . ثم جاءه ذات صباح ضابط وبعض رجال البوليس وأخذوه من المستشفى إلى قسم الدرك الأحمر حيث حجز خمس ليال ، ثم أخل سبيله .

وأغمى عليه مرة ثانية ، ولكنـه أفاق ليجد نفسه فاقد النطق أيضاً ، وأصبح كالحيوان الأعمـج لا يخاطب الناس إلا بالإشارة ، وعندئـذ سعى إلى الانتحار بسكين ، بعد أن فقد وعيه ، وعثر عليه أحد رجال البوليس ، ونقل إلى مستشفى الدمرداش ، حيث صوروا المخ بالأشعة فلم يظهر بها أي أثر لاختلال غير طبيعي .

وطلب ورقاً وقلمـاً ، وكتب ما يأتـي : « حـيـاة فـارـغـة . . . عـديـمة اللـون . . . عـديـمة الطـعـم . . . لـا أـهـل وـلـا أـصـدـقـاء . . . حـتـى اسـمـي الـذـي حـمـلتـه مـا يـزـيد عـن تـسـعـة عـشـر عـامـاً فـقـدـتـهـي ثـوانـاً . . . ». وطلب الشـاب أـن تـنـشـر صـورـتـه لـعـلـ أـهـلـه يـتـعـرـفـون عـلـيـهـ.

ولم أتبـع هـذـه الحـالـة لـبـحـثـها وـمـعـرـفـة العـلـةـ في هـذـا المـرـضـ النفـاسـيـ . وإنـما أـحـبـيتـ أـنـ أـبـيـنـ كـيفـ يـقـعـ بـعـضـ النـاسـ فـريـسـةـ فـقـدانـ الـذـاـكـرـةـ فـقـدـافـاً تـاماًـ ، وـلـيـسـ هـذـاـ مـنـ الغـرـيبـ .

وقد قـسـمـ الـعـلـمـاءـ أـمـرـاـضـ فـقـدانـ الـذـاـكـرـةـ قـسـمـيـنـ ، الـأـوـلـ

عـضـوـيـ Psychogènes والـثـانـيـ نـفـسـاـنـيـ Organogènes فالـقـسـمـ الـأـوـلـ وـهـوـ العـضـوـيـ يـرـجـعـ إـلـىـ إـصـابـةـ المـخـ لـأـىـ سـبـبـ

من الأسباب من عدوى أو سموم أو أورام ، ولذلك يجب أن يتوجه الطبيب إلى بحث المخ لمعرفة السبب ، فلو أن فقدان الذاكرة يرجع إلى إصابة المريض بمرض الزهرى ، أو بورم في المخ ، فإن علاج الزهرى أو استئصال الورم يؤدي إلى شفاء المريض واستعادته ذاكرته . ولا نزاع في وجود علاقة بين المخ والذاكرة ، بدليل أن الشخص إذا وقع على رأسه أو ضرب ضرباً قوياً على رأسه فإنه يفقد الذاكرة فقداناً « مؤقتاً » ، نعني لفترة بسيطة من الزمن قد تكون ساعة أو يوماً أو شهراً ، وقد تمتد إلى الماضي كله كما حدث في حالة صاحبنا الذي ذكرناه في أول هذا الفصل ، وقد تمحي صفحة واحدة من الماضي أو عدة صفحات . وهذه كلها أمراض نفسانية لا يمكن في تفسيرها إصابة المخ . وكان العلماء في القرن التاسع عشر قد اصططعوا النظرية المادية في تفسير النسيان ، واعتمدق « ريبو » بوجه خاص مذهب انتساب الصور في المخ ، وذهب إلى أن إصابة أي مركز من المراكز في المخ هو الذي يؤدي إلى النسيان . ولكن هذه النظرية لم تقف طويلاً أمام النقد القائم على المشاهدات ، لأن الذكريات لا تمحي ، بل تختفي فقط ، ثم تعود إلى الظهور . ومن أجل ذلك درس بعض العلماء القوانيين النفسانية التي يخضع النسيان لها ، وصاغ في ذلك جاكسون Jackson

قانوناً يعرف باسم قانون «الانحلال» Dissolution تراجع فيه الذكريات من التعقيد إلى البساطة، ومن الإرادة إلى الآلية. وإذا طبقنا هذا القانون على الحالة المذكورة سابقاً رأيناه مستقراً ، فقد نسي الشاب كل شيء ما عدا الأعمال الآلية ، كالمشي والأكل واللبس ، والكتابة .

وللعلماء تقسيمات كثيرة لأنواع فقدان الذاكرة . فهذا «ريبو» يقسمها قسمين كبيرين أمراض عامة وأمراض جزئية للذاكرة ، أما الأمراض العامة فيقسمها بدورها ثلاثة أقسام ، مؤقتة ، ودورية ، ومتقدمة ، ووراثية . والأمراض الجزئية هي تلك التي تتناول نواحي خاصة ، مثل نسيان الأسماء أو الأشكال وما إلى ذلك . ونحن ننقل عن كتابه «أمراض الذاكرة» بعض الأمثلة .

وينشأ فقدان الذاكرة المؤقت غالباً فجأة وينتهي كذلك بطريقة غيرمنتظرة وقد يستغرق هذا فقدان دقائق ، وقد يمتد سنوات . فهذا ريض يذهب لاستشارة طبيب ويصاب فجأة بنوبة صرع ، حتى إذا أفاق منها نسي أنه دفع للطبيب أجره قبل دقائق .

وذهب موظف إلى مكتبه وهو يحس باختلاط في ذهنه ، وينذكر أنه كان قد طلب طعاماً من أحد المطاعم ، ونسي

كل شيء بعد ذلك . فعاد إلى المطعم ، وهناك علم أنه طلب الطعام وتناوله ودفع ثمنه وأنه خرج متوجهاً إلى مكتبه ، واستمرت هذه الفترة من النسيان ثلاثة أرباع الساعة .

وأصيب شخص بذنب صرع في دكان وسقط مغشياً عليه ، ثم أفاق ونهض وجرى من الدكان تاركاً قبعته وبطاقته . ووجد نفسه على بعد نصف كيلو متر من ذلك المكان فبحث عن قبعته في جميع الدكاكين ، ولم يكن يدرى ما يفعل ، ولم يعود إلى تمام وعيه إلا بعد عشر دقائق .

ويروى عن أحد العلماء أنه اجتمع في مؤتمر في فندق باريس ، فخرج عاري الرأس وذهب إلى شاطئ السين ثم عاد إلى مكانه من المؤتمر يشارك في مناقشاته دون أن يذكر شيئاً مما فعل .

وتزوجت سيدة من رجل تحبه حباً شديداً ثم أصيبت بذنب إغماء استيقظت بعدها لتنسى كل شيء عن حياتها من بدء زواجهما ، ولكنها تذكر ما قبل ذلك . وإذا تقدم زوجها وابنها دفعتهم بعيداً عنها . وجاء أهلها وأخذوا يقنعونها أنها متزوجة وذات ولد ، فكانت تؤمن على كلامهم وتهتم ذاكرتها حتى لا تفهمهم جائعاً بالادعاء والكذب ، ولكنها ترى زوجها وابنها فتعجب كيف تزوجت هذا الرجل وكيف

## أنجيت هذا الغلام .

وهذه سيدة أخرى في الرابعة والعشرين من عمرها أصيّبت بحالة تدفعها إلى النوم حتى أصبح من العسير تغذيتها فكأنوا يضعون ملعة في فمها تبلغ منها الطعام . وبعد شهرين شفيت من ذلك المرض ، واستيقظت لتجد نفسها قد نسيت كل شيء ، وأنها فقدت ذاكرتها ، وغاب عنها كل ما تعلمته ، وأصبح كل شيء تراه جديداً بالنسبة إليها ، فهي لا تعرف أحداً حتى أقرباً منها الأقربين . ولكنها كانت مرحة شديدة الحركة تبدو كأنها طفلة . وفي أول الأمر كان من المستحيل أن يتحادث المرء وإياها ، فإذا سمعت سؤلاً ردده في صوت مرتفع . ولم يبق في قاموسها إلا بعض الكلمات ، ثم أخذت تكتسب بسرعة كلمات أخرى ، ولكنها كانت تخلط بين الألفاظ ، بدلاً من أبيض تقول أسود ، وإذا وصفت الحار قالت إنه بارد ، وهذا ذراعي بدلاً من فخذى ، وهذه سنتي بدلاً من عيني ، وغير ذلك ، وظللت على هذه الحال مدة طويلة . وبقيت فترة طويلة لا تذكر أهلها ، ولو أنها كانت تعرفهم بأسمائهم التي علموهم إياها . وتعلمت القراءة من جديد ، واضطررت إلى تعلم الألفباء لأنها لم تذكر حتى الحروف ، ثم تعلمت المقاطع والكلمات وأصبحت تقرأ في سهولة .

وهذا شخص آخر في الثلاثين من عمره فقد ذاكرته عقب مرض شديد وأصبح لا يعرف حتى أسماء الأشياء المألوفة . فلما استعاد صحته بدأ يتعلم من جديد كأنه طفل ، فتعلم أسماء الأشياء ، ثم القراءة ، ثم أخذ يتعلم اللغة اللاتينية ، وكان يتقدم في تعلمه بسرعة . وكان أخوه هو الذي يقوم بتعليمه ، فتوقف ذات يوم فجأة ، ووضع يده على جبهته ، وقال : إنني أحس في رأسي إحساساً غريباً ، إذ يخيل إلى الآن أن كل ذلك قد علمته من قبل . واستعاد بعد ذلك ذاكرته .

وإليك قصة سيدة نصف كانت في صحة جيدة ثم سقطت في حادثة في النهر وكادت أن تغرق ، وظلت ست ساعات بدونوعي ثم عادت إلى نفسها . وبعد عشرة أيام أصبحت بإغماء تام استمر أربع ساعات ، فلما فتحت عينيها لم تعد تعرف أحداً ، حتى لقد ذهب سمعها وفقدت النطق ، والذوق والشم ، ولم يبق لها من الحواس إلا البصر واللمس الذي كان شديد الحساسية . وأصبحت بذلك جاهلة بكل شيء ، عاجزة عن التحرك بنفسها ، حتى أصبحت كالحيوان الذي انتزع منه . وكانت ذات شهية جيدة للأكل ، إلا أنه كان من الواجب إطعامها ، وكانت تبلغ الطعام بطريقة آلية . جملة القول ارتدت السيدة إلى آلية خالصة . ولم تكن تعمل

شيئاً إلا أن تقطع ما يقع تحت يدها ، كالورق ، أو الزهر ، أو الملابس ، قطعاً صغيرة . وبعد فترة من التعليم أصبحت تشغله بالإبرة من الصباح إلى المساء ، ولم تكن تميز بين الأيام . ولكنها كالأطفال أخذت تكتسب بعض الخبرات ، وأخذت تتعلم نسج السجاد .

وكان هناك موضوعان يؤثران عليها أشد التأثير ، سقوطها في النهر ، وقصة غرام قديم . فإذا رأت صورة نهر أو بحر تهيجت هيابجاً عظيماً يعقبه صرخ وإغماء . وكان صوت الماء يثير فيها خوفاً يجعلها ترتعش ، فإذا غسلت يديها وضعفهما في الماء وضعاً دون تحريكهما . ومنذ ابتداء مرضها كانت زيارة رجل معين لها تبعث فيها سروراً ظاهراً على حين أنها كانت لا تحفل بغيره . وكان يزورها بانتظام كل مساء ، كما كانت تنتظر كذلك حضوره . ومع أنها لم تكن تذكر شيئاً مما تفعل ، فإنها كانت تترقب بشغف أن يفتح الباب في الساعة المعلومة ، وإذا لم يحضر صاحبها ظلت واجهه طول الليل . جملة القول إن وجود هذا الرجل إلى جانبها كان يزيد في تحسن حالها الطبيعية والنفسية . وأخذت تستعيد ذاكرتها شيئاً فشيئاً ، غير أن الطريقة التي شفيت بها تماماً تعد عجيبة حقاً ، إذ أنها علمت أن حبيبها يغازل امرأة أخرى ، فثارت فيها

عاطفة « الغيرة » ، وأحدثت هذه الغيرة ذات يوم حالة تكاد تشبه حالها الأولى ، حتى إذا أفاق من إغمائها إذا بها تسترجع ذاكرتها التي فقدتها مدة عام كامل ، وعرفت جدتها وحاجتها وأصدقاءها القدماء . ولكنها بعد أن استعادت ذاكرتها الماضية ، نسيت كل شيء عن الفترة التي قضتها خلال المرض حتى ذلك الوقت .

ولا نود أن نطيل في ذكر القصص التي دونها العلماء عن فقدان الذاكرة ، وفي كتاب « ريبو » الشيء الكثير ، وفيه تتمة الأنواع التي قسم أمراض الذاكرة إليها .

ولكن هذه القسمة أصبحت قديمة ، وأصبحت لا تفسر ظاهرة النسيان المرضية تفسيراً كافياً . ونحن نميل إلى الأخذ ب التقسيم الأستاذ جان ديلاي الذي يجعل الذاكرة ثلاثة أنواع ، آلية [ حسية حركية ] واجتماعية ، ووهمية .

ومعظم هذه القصص التي سقناها عن فقدان الذاكرة ترجع إلى اختلال الذاكرة الاجتماعية ، وتتمثل ابتعاد المريض عن المجتمع وسخطه عليه وهربه منه وذلك بنسيان الأحداث التي وقعت له في هذا المجتمع . وليس الصراع ، أو الإغماء ، أو النوم ، وما إلى ذلك إلا جنوحًا من الشخص إلى الابتعاد عن المجتمع ، وهي دليل على أنه لا يريد أن يفتح عينيه عليه .

والنسيان أحد هذه الصور المرضية ، فهو « غيبة » عن المجتمع ، وصادف عنه ، وكثيراً ما يختلط النسيان ، أو فقدان الذاكرة ، بأمراض نفسية أخرى كالصرع أو العته dementia . ولكن هذه الذاكرة الاجتماعية حين تفقد ، فإن الذاكرة الآلية تظل باقية ، وكذلك تظل الذاكرة الوهمية ، وما يصحبها من هذيان وخرافة وخيالات .

وقد اختلف العلماء بشأن سبب النسيان ، ولم في ذلك نظريات أربعة ، الأولى كيميائية ، والثانية عصبية ، والثالثة مخية ، والرابعة وظيفية . وجميع هذه النظريات من قبيل الفروض التي لم تستطع التجارب تأييدها . ويبدو أن لكل منها جانباً من الصواب .

ويزعم أصحاب النظرية الكيميائية أن كل عمل نفسياني يتم على حساب مادة غذائية تنحل كيميائياً وتتغير باستمرار ، ويعرف العلماء هذا التغير باسم catalytic ، ومن شأنه زيادة التأثير بسبب الفعل . ومثال ذلك الأكسجين الذي تستنشقه مع الهواء ، فإنه يساعد على التذكر ، وقلاته تؤدي إلى النسيان . وحاول بعضهم تفسير النسيان بتغيير كثافة المادة الهرمية colloid .

أما أصحاب النظرية العصبية فيذهبون إلى أن الذاكرة متصلة

اتصالاً وثيقاً بـ اللهاز العصبي ، وما يحدث فيه من تغيير الخلايا العصبية . وأن اكتساب ذكرى جديدة يؤدي إلى زيادة خلوية [أى نسبة إلى الخلية] من جهة الحجم ، كما تعدد الطرق بين الخلايا حين يمر التيار العصبي . ونحن نعلم أن الخلية العصبية تتكون من نواة ومن زوائد شجيرية وزوائد محورية ، وتتدخل الخلايا دون أن تتلامس ، بحيث تتدخل الزوائد الشجيرية من الخلية في فروع الزائدة المحورية من الخلية التي تليها . وتسمى نقطة هذا التدخل « بالوصلة » ، ويتم العبور بين الخلايا العصبية بانتقال التيار العصبي عابراً هذه الوصل ، ويؤدي تكرار انتقال التيار العصبي إلى تكوين العادات أو إلى الذاكرة الآلية . ويؤدي التخدير أو التعب أو السموم إلى مقاومة هذه الوصل ونباعد الخلايا العصبية .

وإذا كانت الذاكرة تابعة لـ القيام الأعصاب بوجه عام بوظيفتها فإنها أول كل شيء متعلقة بالمخ . والمشاهدة الساذجة تؤيد ذلك ، لأن ضربة العصا على الرأس تفضي إلى الغيبوبة وإلى فقدان الذاكرة . وهناك كما نعرف مناطق للحس والحركة والتفكير والكلام في المخ . فالصلة وثيقة بين المخ وبين الظواهر النفسية المختلفة .

وزعم كثير من علماء النفس حتى أواخر القرن الماضي

أن المخ أشبه بالشمع الذي تنطبع عليه الآثار النفسانية ، فهو مثل «الحراموفون» ، وأن الذكريات تنطبع أو تحفر في المخ . ولكن هذه النظرية لا تجد لها سندآ الآن .

وحاول بعض العلماء أن يعد الخلايا العصبية الموجودة في المخ ، وقدرها أحدهم بأربعة عشر مليار من الخلايا ، وأن كل صورة ذهنية تسجل في خلية من هذه الخلايا . فلو فرضنا أن رجلا عاش حتى الثمانين فمجموع ما قطعه من الثاني هو مiliاران ونصف ، ولا يمكن أن تبلغ ذكرياته هذا العدد ، لأن قاموس أي شخص من الألفاظ لا يزيد عن ٢٠,٠٠٠ لفظة .

غير أن هذه النظرية أيضاً لم تثبت طويلا أمام النقد ، وبخاصة نقد برجسون ، ذلك أن الصورة الذهنية التي تؤلف الذكرى ليست واحدة ، فأنت تعرف «محمدآ» مثلاً بعد أن رأيته آلاف المرات وهو في كل مرة مختلف عن سابقتها ، ومع ذلك فهو شخص واحد . وهناك طائفة كثيرة من أنواع النسيان ترجع إلى فساد الحفظ والاكتساب ، فالذكريات لا تنسى لأنها فسدت في المخ بل لفساد حفظها ، ومن أجل ذلك كانت الأحداث سريعة النسيان بالإضافة إلى الشيوخ على حين أنهم يحفظون بالأحداث الماضية . يضاف إلى ذلك

أن النسيان يسير طبقاً لقانون معين يسمى قانون التراجع regression إذ تنسى أولاً الأسماء ، ثم المعاني الكلية ، ثم الصفات ، ثم الأفعال ، مما يدل على أن النسيان راجع إلى أسباب نفسانية أكثر منها فسيولوجية .

من أجل ذلك رأى العلماء أن النسيان « وظيفة » حيوية مستقلة للحياة النفسانية ، ووظيفة الذاكرة هي وحدة الحياة النفسانية . وإذا انحلت الذاكرة أدت إلى ألوان من النسيان وإلى أمراض الذاكرة مما بسطناه من قبل .

## ولله الف بـ قواعد لتدريب الذاكرة

يحتاج كل إنسان إلى الاعتماد على ذاكرته وإلى تحسينها وتنميتها وإلى إبعاد شبح النسيان . منا من يشكو نسيان الأسماء والوجوه . ويطمع الطالب أن يحفظ دروسه ولا ينساها عند أداء الامتحان . ويرجو الخطيب ألا تخونه ذاكرته وهو يخطب الجماهير فلا يلجمأ إلى القراءة من الورق . وأشد الناس حاجة إلى الذاكرة هم رجال الأعمال كالتجار والموظفين في المؤسسات التجارية لصلتهم بالجمهور ، ولأن نسيان الموظف أو رجل الأعمال شيئاً يؤدي إلى خسارة المال . ولذلك ألف كثيرون كتبآ في تحسين الذاكرة لقيت رواجاً كبيراً ، وبخات المؤسسات الأمريكية إلى هؤلاء العلماء النفسيين في علاج الموظفين عندهم من آفة النسيان . وإننا ملخصون هذه القواعد التي تقوم على مبادئ نفسانية فيها يلي :

### ١ - اعقد النية على الحفظ :

لنفرض أن أحداً قدم إليك شخصاً اسمه « مصطفى عبد العال » فإنك قد تقول محياً إيه « تشرفنا » أو « أهلاً وسهلاً » دون أن تعنى بالتفاوت اسم مصطفى عبد العال ، لأنك

قد تقول في بالك ، ولو بغير شعور ، وماذا يعني من تذكر اسمه ؟ فلا أهمية لـ أن تذكر ، ولن أقابله مرة أخرى . فإذا قابلته في مناسبة أخرى فلن تتذكر اسمه ، لأن نيتك انصرفت من أول الأمر عن تذكره . فإذا نسيته فليس معنى ذلك ضعف ذاكرتك بل عدم محاولتك « الحفظ » . ولذلك كانت الأمور التي تسمعها أو تقرؤها أو تراها عرضاً أدعى إلى النسيان .

### ٢ - انتبه إلى ما تحفظ :

إذا عقدت النية على تذكر مصطلح عبد العال ، فسوف « تتبه » إلى اسمه ، وتحسن التقاطه وسماعه ، كما تتأمل شكله وملاحمه وحركاته . وكثيراً ما ينسى التلاميذ ما يلقونه عليهم المعاصر أو المدرس لأن عقلهم في شيء آخر ، أو بمعنى آخر غير متبعين . ولذلك لا يفهمون الدرس ، مع أن « الفهم » أساس الحفظ ، وينسى الطالب لأنه لم يفهم المادة التي يسمعها أو يقرؤها . والانتباه هو السبيل إلى الفهم ، ثم إلى الحفظ ، ثم إلى التذكر أو عدم النسيان .

### ٣ - استعمل الصور الذهنية ما أمكنك :

إذا أردت أن تذكر مصطلح عبد العال ، فاستحضر صورته في ذهنك . الحظ شكله ولونه ، واون عينيه وملابسه وهكذا ، والحظ كذلك حديثه وطجته ، وانتبه إلى « لوازمه »

فكل شخص له لوازم تخصه ولا توجد عند غيره ، وكل شيء كذلك يمتاز بلوازم تخصه وتفرقه من غيره . والحظ كذلك غرائب الأشياء والأشخاص ، فكلما كانت الصورة غريبة ، بل مضحكة ، كانت أدعى إلى التذكرة .

#### ٤ - اربط ما تحفظ بغيره من معلوماتك السابقة :

هذه القاعدة هي في الواقع أهم قواعد الحفظ ، لأن الترابط أساس التذكر . والترابط قد يكون ظاهرياً وقد يكون جوهرياً . فالترابط الظاهري ما قام على تشابه وثيق أو على مجرد التلازم والتتابع . أما الترابط الجوهري فهو الذي يستند إلى علة معقولة مثل رابطة السبب بالسبب والجزء بالكل وهكذا .

تريد أن تتذكر مصطفى عبد العال ولا تنساه ، فاربطه بصديقك الذي عرفك به ، وبالمكان الذي التقينـ فيه ، وبالمناسبة التي وجدت ، وبعمله ووظيفته وما إلى ذلك .

والذاكرة الجديدة التي لا تنسى عبارة عن شبكة منتظمة ، حسنة الارتباط بين الأجزاء ، واضحة الروابط ، بحيث يسهل الوصول إلى أي جزء منها . وفي ذلك يقول وليم جيمس : كلما ارتبطت الحقائق في الذهن بعضها ببعضها الآخر استطاع العقل أن يسيطر عليها وأن يذكرها . وتصبح كل حقيقة من الحقائق التي تربط بها الحقائق الجديدة « كالخطاف »

الذى تتعلق به ، أو كالسنارة التى نصياد بها السمك حين يغوص فى الماء ويدهـب إلى القاع ويبعد عن السطح . وتكون هذه الحقائق مجتمعة شبكة تلتـحم في نسيج الفكر . ويرجع السر في الذاكرة الحـيدة إلى تكوين روابط متعددة مختلفة بين الحقائق التي نحتفظ بها . وليس الروابط التي ترتبط بالحقيقة السابقة شيئاً آخر سوى التفكير فيها وتقليـبها على وجهـها .

#### ٥ - احفظ بالنغم أو الإيقاع :

وهـذه هي طـريقة تحـفيـظ الصـغار ، ولـمـاذا لا يـلـجـأ إـلـيـها الكـبار ؟ وـكان الـقـدـماء يـنـظـمـون الـعـلـوم الـمـخـتـلـفة فـي أـرـاجـيزـ منـظـوـمة لـيـسـهـلـ حـفـظـها ، مـثـلـ أـلـفـيـةـ اـبـنـ مـالـكـ فـيـ النـحـو ، مـاـ لـاـ يـزـالـ يـحـفـظـ فـيـ الأـزـهـرـ حـتـىـ الـآنـ .

#### ٦ - وزـعـ ماـ تـحـفـظـ عـلـىـ عـدـةـ أـيـامـ .

من أـهمـ الأـسـبـابـ الـتـىـ تـجـعـلـ كـثـيرـاـ مـنـ الـطـلـبـةـ فـيـ مـصـرـ يـعـجزـونـ عـنـ تـذـكـرـ مـعـلـومـاتـهـمـ عـنـدـ الـامـتـحـانـ آـخـرـ الـعـامـ أـنـهـمـ يـظـاـوـنـ طـولـ السـنـةـ الـدـرـاسـيـةـ يـلـعـبـونـ مـنـصـرـفـيـنـ عـنـ الـاستـذـكـارـ ، ثـمـ يـكـبـونـ آـخـرـ السـنـةـ طـولـ الـلـيـلـ يـسـتـذـكـرـونـ ، وـيـكـرـرـونـ قـرـاءـةـ الـعـلـومـ الـمـخـلـفـةـ . وـفـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ لـاـ يـقـرـأـ أـحـدـهـمـ الـعـلـمـ إـلـاـ إـلـمـةـ الـامـتـحـانـ ، أـوـ صـبـاحـهـ . وـقـدـ بـيـنـاـ أـنـ التـكـرـارـ المـوـزـعـ عـلـىـ أـيـامـ أـفـضـلـ مـنـ التـكـرـارـ الـمـتـلـاـحـقـ ، وـقـدـ ثـبـتـ هـذـاـ بـالـتـجـربـةـ ، حـتـىـ

يأخذ الذهن فرصة للراحة ، وحتى قربط المعلومات الجد  
بالمعلومات القديمة المستقرة في اللاشعور .

٧ - اجتهد أن «تَسْمَع» ما تحفظ :

المقصود بالتسميع أن تكرر إلقاء ما تحفظ ، فـتـقـ نفسك ، أو يسمعك غيرك . وكانت هذه هي الطريقة تحفيظ القرآن ، إذ «يسمع» الطفل السورة على الشيخ ليعرفها هل حفظها أو لا . وفائدة التسميع أنك تكرر ما تحفظ تضاف إلى المرات السابقة ، والنكرار أساس الحفظ . كما تتقـ نفسك ، وتعرف إلى أي حد بلغت .

وإذا أردت أن تذكر اسم « عبد العال مصطفى فانطق به ، واجبته أن تقول : « أهلا وسهلا مصطفى عبد العال بدلا من الاقتصار على رد التحية مجردة . وقل له في المقابلة : « مع السلامة يا مصطفى عبد العال ». فهذا أدعى ذكر اسمه وعدم نسيانه .

٨ - نم أو على الأقل استرح بعد الحفظ.

إذا عرف الطالب هذه الدواعدة لتجنبوا السهر ليلة الامتحان  
في حفظ المادة التي سيمتحنون فيها باكراً . فيأتي أحدهم  
الصباح ، مجهداً متعباً ، فيعجز عن الإجابة ، ويعجب كثيرون  
مني ما حفظ .

٩ - احفظ بالطريقة الكلية مجملًا لا تفصيلاً .

إذا كنت تدرس كتاباً وتحفظ ما جاء فيه ، فاقرأ الكتاب  
كله دفعة واحدة ، واقرأ الفصل جملة لا على عدة أجزاء ،  
ذا كان للكتاب ملخص فاقرأ الملخص قبل قراءة الكتاب ،  
ن الطريقة الكلية أدعى الحفظ من الطريقة الجزئية .

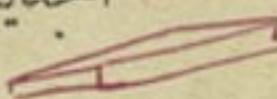
○ ○ ○

هذه بعض قواعد لاحفظ وتنمية الذاكرة ، إذا اتبعها  
 الطالب بوجه خاص لم يجدوا عسرًا في استيعاب ما يدرسون ،  
 ولم يشكون من آفة النسيان .  
 وكلنا طلاب حقيقة في هذه الحياة .  
 ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .

خالد بن عبد العال

الحديد في المحفوظات العربية

أربعة أجزاء



۴

۲۰۷

لمو

تألیف

# شُو، بْلَهْنَةُ مِنْ أَسَاٰتِذَةِ الْبَلَادِ الْعَرَبِيَّةِ شُو، الصَّوْصِيَّهُ الْمَرِّ

طبعة جديدة معدلة مزينة بالرسوم الملونة تقدم  
للطالب في مختلف مراحل التعليم الابتدائي والإعدادي  
والثانوي مجموعة منتخبة من الشعر والنثر تزوده بثروة  
وافرة من الفصحي وتعمل ملكاته وترهف فيه الإحساس  
والشعور .

دار المعرفة مصر

卷之三

# أوكلاند

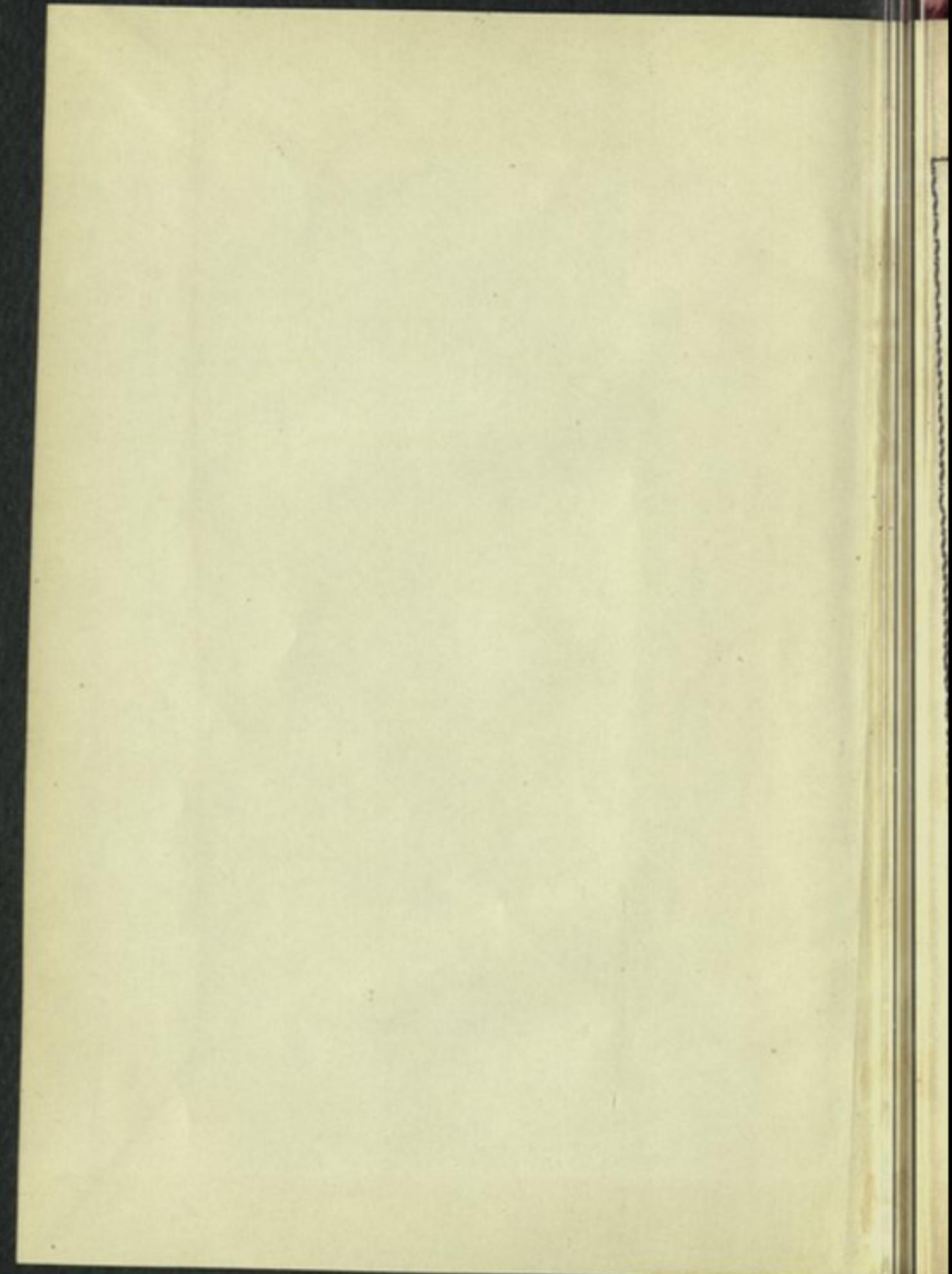
مجموعة من القصص الرشيقه المقيدة  
يمجد فيها الطالب في جميع مراحل المرو  
المتعة والثقافة وسمو النفس .

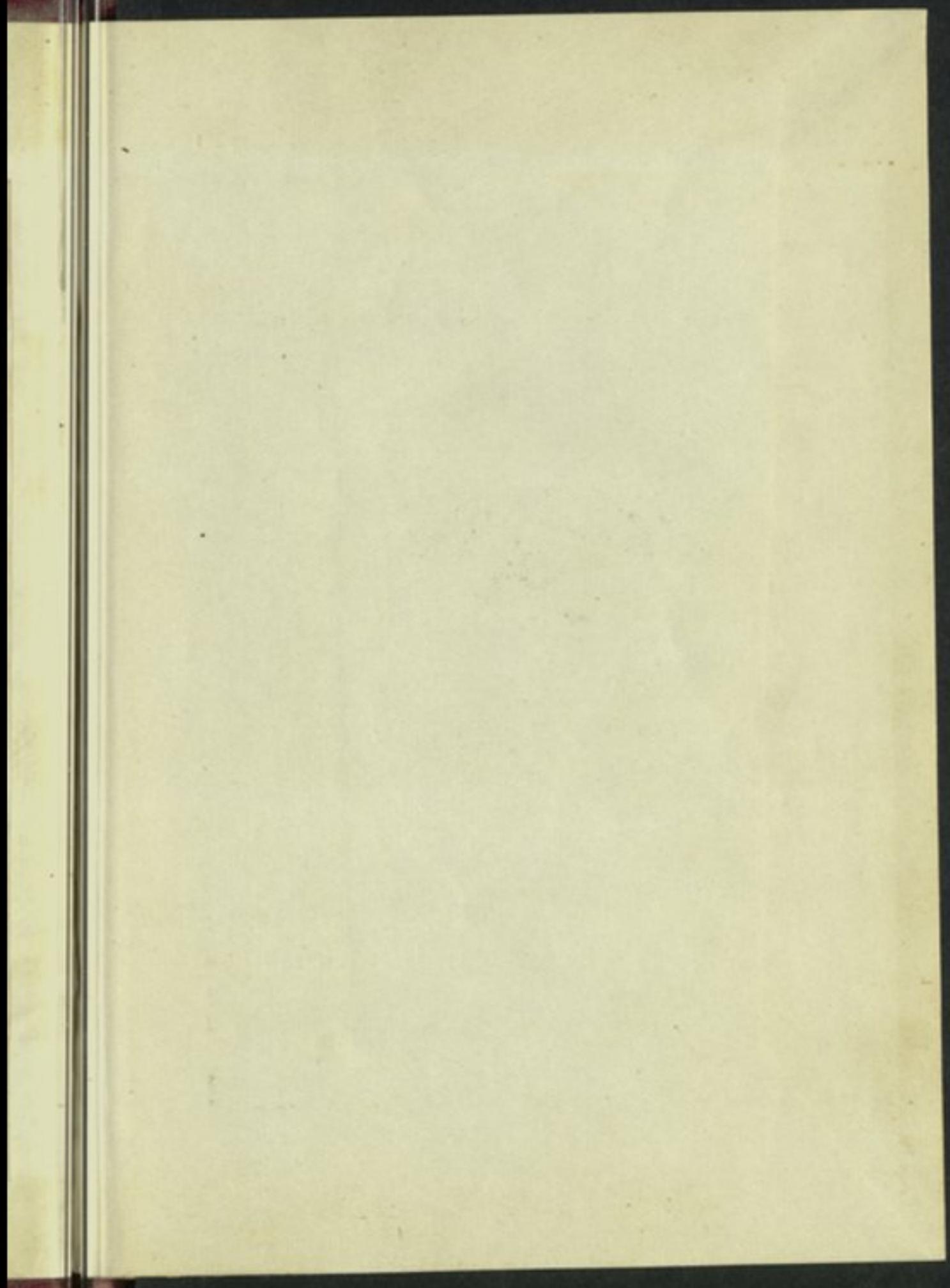
١٢	عمرون شاه	١
١٢	ملكة السحر	٢
١٢	كريم الدين البغدادي	٣
١٢	آلة الزمان	٤
١٢	الأمير والفقير	٥
١٢	كتاب الأدغال	٦
١٥	بينوكيو	٧
١٢	نبوة المنجم	٨
١٢	روبن هود	٩

تصدرها

دار المعارف بصر

باشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد





American University of Beirut



154.5  
A28nA

General Library

I54.5  
A28nA